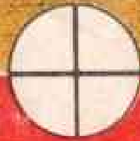
سلسلة المائة كتاب

في الثقافة والحرب



دراسات

الستراتيجية العسكرية

«السوق العسكري»

نظرة عامة في التحكم بالقوة

تأليف: الاميرال جي. سي وايلي

ترجمة: سليم شاكر الامامي

مراجعة: العقيد المتقاعد رشيد صالح العزاوي



دار الشؤون الثقافية العامة

الستراتيجية العسكرية

« السوق العسكري »
نظرية عامة في التحكم بالقوة

تأليف: الأميرال جي. سي. وايلي

ترجمة: سليم شاكر الأمامي

مراجعة: العقيد رشيد صالح العزاوي

الطبعة الاولى ١٩٨٧

MILITARY STRATEGY

A GENERAL THEORY OF POWER CONTROL

J. C. WYLIE

RUTGERS UNIVERSITY PRESS
NEW BRUNSWICK, NEW JERSEY
1967

ملاحظات الناشر

لماذا أديرت الحرب بالطريقة التي جرت ادارتها بها ؟ ولماذا يفكر الجندي كجندي .. والبحار كبحار .. والطيار كطيار ؟ هل ان ذلك حدث ويحدث لوجود اختلاف عام في وجهات نظر كل منهم ، وكنتيجة لمناقشات فكرية ؟ أم ترى أنه مجرد تحيز وتحامل ؟ أو خبط عشواء ؟ واستطراداً نقول ... هل يمكن صياغة نظرية عامة في السوق ، (الستراتيجية) ، نظرية يمكن تطبيقها ليس في الحروب والصراعات العسكرية حسب وكما دارت رحاها في الماضي ، بل لتطبيقها كذلك في أي نوع من أنواع الصراع ، سواء كان هذا الصراع حرباً ساخنة أو باردة ، ثورة ، أو صراعاً اقتصادياً أو سياسياً ؟ .

لقد أمعن الأميرال جي.سي. وايلي النظر طويلاً وبعمق في الأفكار الواردة بهذه الدراسة المثيرة التي بين أيدينا بوصفها العامل الأشد تأثيراً في وضع الحلول الناجعة للمعضلات والقوى التي تجابه وتتحدى الغرب . كما تساءل الأميرال وايلي عن صحة المفاهيم القديمة وشرعيتها ، فقدم هو نفسه تساؤلات جديدة وهادفة مثل : هل سيظل « تدمير جيش العدو » هو الهدف النهائي للعمليات العسكرية دائماً وأبداً ؟ ووفقاً للمفهوم الذي وضعه كلاوزفتج ، وهل أعطى الستراتيجيون ما يكفي من الاهتمام والتوضيح لهدف الستراتيجية ؟ وكيف ترى تتم الموازنة ما بين التدمير والسيطرة ؟ .

لقد ناقش الأميرال وايلي نظرية ماوتسي ـ تونك في حرب التحرير الشعبية ، ويعتقد أن التحول الذي حصل في الصين الشعبية في استبدال سلطة البروليتاريا بسلطة «الفلاحين» يشكل بحد ذاته ممارسة حاسمة وذات أهمية هائلة في التخطيط السوقي الآن وفي المستقبل .

وبسبب من خبرته الطويلة في صياغة الستراتيجية العسكرية في الولايات المتحدة فإن تحليلات الأميرال وايلي وآراءه تستحق اهتمام العسكريين المحترفين وقادة الحكومات وكبار الصحفيين والمعلقين والأساتذة الأكاديميين وانتباههم ، وبسبب من عقليته المتحررة والمتفتحة وغير المقيدة أو المتأثرة بالمصطلحات والمفاهيم العسكرية التقليدية والتعاليم والطقوس السائدة فستكون لكتابه أهمية قاطعة حتى بالنسبة لغير المتخصصين من المعنيين بخير أُمتهم ومستقبلها .



مقدمـة المترجـم

لست مترجماً محترفاً وإن كانت لي بضع محاولات في ترجمة مقالات وموضوعات نشرت هنا وهناك وعلى فترات متباعدة ، ولكنني لم أستطع مقاومة الرغبة في ترجمة هذا الكتاب الصغير في الستراتيجية العسكرية رغم الصعوبات التي واجهتها في التعامل مع المفاهيم الفلسفية ، وأخشى أنني لو أطلقت لنفسي العنان هنا لفاقت مقدمتي في حجمها الكتاب نفسه ولكني سأترك للقارىء الكريم أن يستنبط لنفسه المعاني العميقة لهذا الكتاب وما قصد إليه مؤلفه . فهوكتاب في « فلسفة الستراتيجية » ،ليس الستراتيجية العسكرية بل الستراتيجية أو النظرية العامة التي تنطبق على جميع أشكال الصراع ، ويجعل الكاتب من ذلك شرطاً لازما للحكم على صحة أية نظرية .

تتميز الستراتيجية ، الى جانب قلة ما كتب عنها ، بالكثير من العريفات التي قد يتعارض بعضها مع البعض الآخر وتتراوح ما بين تعريفها بـ« فن قيادة الجنود » كما في الجذر اليوناني للكلمة والى اعتبارها نظاماً فكرياً عاماً يتسع لكل مجالات النشاط الانساني ، ولكل منا أن يختار ما يناسبه من هذه التعريفات . ولن أتقيد بأي منها بل سأكتفي بالاشارة لما فيها من شمولية وامتداد يتجاوزان الحدود التي يتحرك الانسان العادي ضمنها .

لقد أصبحت (الستراتيجية) أو (السوق) من المقومات والعلوم الأساسية التي لا غنى عنها في حياة الشعوب والأمم لا سيما في عصرنا هذا حيث لا يعني انعدام التخطيط والتهيؤ سوى الفوضى والفشل ، وعلينا ألا ننسى المصاعب التي تواجه من يحاول دراسة وتفهم الستراتيجية ، إذ ليس بمقدور من لا يملك ذهناً صافياً أو عقلاً مرتباً أن يحاول الاقتراب منها في اتساعها وشموليتها بحيث باتت تنطوي ضمنها كل مجالات النشاط الانساني ، ولاقتصارها من جهة أخرى أحياناً على جانب أو جزء صغير ومحدود من مجالات الفكر العسكري ؛ والترجمة هي المجال الوحيد المتاح أمامي للاسهام في رفد البناء الفكري للستراتيجية ، أما التأليف فيها فهو مهمة الاختصاصيين وذوي الخبرات العريقة . وقديما كانت الستراتيجية هبة الله وحرفة

القادة العظام ورجال الدولة الأفذاذ من الذين قدر لهم أن يسهموا في بناء الأمم وصناعة التاريخ .

يقع الكتاب في تسعة فصول ومقدمة وخاتمة ، تسبقها جميعاً ملاحظات الناشر حول الأهمية والخطوط العامة للبحث وعن ادارة الحرب والطرائق التي يفكر بها البحار والطيار والجندي ، وعما اذا كانت تلك الأهمية تعود الى اختلاف أساس في وجهات النظر أو كان ذلك نتيجة لمناقشات فكرية ، إذ يحدد المؤلف في المقدمة الغاية الأساس لكتابه وهي :ـ التأمل في نظرية عامة في السوق ، نظرية يمكن أن توفر قاعدة أساساً ونقطة انطلاق لفكر ستراتيجي أكثر نظامية وفاعلية من المفاهيم التي سادت حتى الآن ، ولا يعد المؤلف أن تتضمن نظريته هذه ستراتيجية جاهزة وناضجة إلّا بقدر ما تستطيع نظرية سياسية سليمة ضمان قيام حكومات ناجحة . وكلما يرجوه هو نقطة الانطلاق المتوازية والنظامية لاستنباط وصياغة ستراتيجية أعدت من أجل تحقيق هدف خاص محدد ، والكتاب في النهاية ليس أكثر من مجرد تأملات في نظرية لستراتيجية الحرب ، ولا يجوز للأشجار أن تحجب عنا رؤية الغاية .

في الفصل الأول يحاول المؤلف الاحاطة بالفكر العسكري ، ولماذا يعامل بهذه الدرجة من الاغفال والتجاهل قياساً بمئات البحوث ورسالات الدكتوراه في مناحي الفكر الأخرى أو مجالات النشاط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وكل المجالات الثانوية الاخرى إلا الغليان الاجتماعي الهائل والمدمر للحرب نفسها ، فهي الموضوع الوحيد الذي لم يدرس بموضوعية ومنهجية من أجل استنباط نمط أو أنماط فكرية أساسية وعقلانية ، أو نظرية عامة في الحرب رغم ما تسببه هذه من فوضى وويلات وموت وارباك اجتماعي لا حدود له ، ورغم تعدد نماذج الحرب وأمثلتها وكثرة الشواهد على امتداد التاريخ ، ورغم العديد من الكتابات حول الحرب إلا أن اكثر هذه الكتابات طاف حول عموميات الحرب وأدبياتها والدروس المستقاة منها وتفاصيل الحملات وخطوط حركاتها والى ما شابه ذلك من البيانات والقصص ، إلا في القليل النادر ، حتى أمكن تعداد الذين أحسنوا الكتابة وحصرهم بسبعة فقط وهم مكيا فيلّي ، وكلاوزفتج وماهان وكوربيث

ودوهيه وماوتسى ـ تونك وليدل هارت ـ وقد يمكن اضافة بضعة أسماء اخرى الى قائمة المؤلف مثل أندريه يوفر وفولر .... الخ ـ من الذين أسهموا في اغناء الفكر العسكري بقدر أو بآخر ، ورغم ذلك فلا توجد حتى الآن دراسة شاملة وكافية أحاطت بموضوع الستراتيجية ككل ، بل لم يجر حتى الآن تحديد الاطار الفكري لها وهل يمكن اعتبارها علماً قائماً بذاته ، رغم تعدد التعريفات التي وضعت لها ، ورغم انها لم تعد سراً مغلقاً أو حكراً على فئة معينة من الناس ولا يجوز أن تكون كذلك .

في الفصل الثاني يتناول الكاتب طرق دراسة الستراتيجية بعد أن يحدد التعريف الذي يفضله لها ، وهي انها ... « خطة عمل صممت للوصول الى نتيجة ما ، مع منظومة من الوسائل والاجراءات لانجاز ذلك . ويتسع هذا التعريف ليشمل ما وراء التطبيقات العسكرية من بين النشاطات الاجتماعية الاخرى ، كما انه تعريف يفرض ابتداءً درجة من الانقسام الفكري بين «الهدف» و «الوسائل» المعتمدة لتحقيقه ضمن الاطار الاخلاقي لواضع ومنفذ الستراتيجية وبالتالي للمستفيد منها أيضاً ، ومن بين طرق دراسة الستراتيجية يتناول الكاتب الطريقة الكلاسيكية (أو المدرسية) وهي أشبه بالتراث الروائي أو القصصي والتي تشبه المقدمات الطويلة كما نحتاجه في دراسة الحرب حقاً ، ورغم صعوبة العثور على الكلمات المناسبة التي تخدم طريقة الكتابة هذه والتي ترد بأشكال متعددة ـ وفقاً لشخصية الكاتب وثقافته ـ لا تفيدنا أي منها في انجاز تحليل ثاقب أو تطبيق واقعي في عملية التخطيط الستراتيجي ، وحتى كلاوزفتج وهو أكثر من كتبوا في الحرب لم يكن شاملاً حتى انه لم يكمل أو يدقق كتاباته وجلّ ما وصلنا منه هي المسودات التي لم يتم تنقيحها أو سبكها في صياغتها النهائية والتي نشرت بعد وفاته على انها آراؤه النهائية والكاملة والتي ظلت تتحكم بالفكر العسكري وحتى الآن .

وهناك طريقة اخرى في الكتابة عن الحرب ولكن بأسلوب التصانيف والمصطلحات كأسلوب التخطيط السوقي وتقارير الحروب ودورياتها وفي اعتماد الحقائق التاريخية واستعمال المصطلحات المألوفة مثل الدفاع والتعرض لتقديم الحرب وستراتيجيتها في سياق واضح ، وعيب هذا الاسلوب انه لا يمكن تطبيقه إلا بعد انتهاء الحرب ، أي انها ليست أكثر من استعادة لأحداث مضت ، وتطبيقها يفرض علينا تصور وقوع هذا

الموقف أو ذاك او افتراضه قبل المضي في بناء الستراتيجية .

والطريقة الثالثة هي طريقة عزل مبادىء الحرب التي تعتبر من الأفكار المتفق على قدسيتها واستقرائها ولا اعتراض لدينا على أهمية باديء الحرب ولكن من ذا الذي يستطيع أن يثبت لنا ان لها علاقة ما ـ مهما كانت ـ نظرية الحرب أو ستراتيجيتها ، ثم لا بد من توفر مؤهلات وقدرات غير اعتيادية لدى القائد الذي يعمل أو يتعامل وفقاً لمبادىء الحرب ليتسنى له وبما يمتلك من حكمة القرار على متى وكيف ؟ وأين عليه التمسك أو رفض هذا المبدأ أو ذاك ؟ .

الطريقة أو المقترب الرابع في دراسة الستراتيجية هو باعداد اختصاصيين في دراسة المسائل الاجتماعية الوثيقة الصلة بالعمل العسكري من أجل اعداد ستراتيجيين اكفاء ، وقد يساعد ذلك على توسيع آفاق الدارسين دون أن يضمن لنا توليد اية انماط جديدة للتفكير السوقي بشكل مباشر عدا عن ان الطريقة ليست بالطريقة المثالية للوصول الى تحليل افضل لتلك الأنماط الفكرية ، ولعل أفضل المقتربات لدراسة الستراتيجية هو بالفصل ما بين جانبيها الرئيسين ، المفاهيمي (Conceptional) أو الفكري أولاً والجانب العملياتي (Operational) ثانياً .

في الفصل الثالث يشرح المؤلف وباسهاب تطبيقات نوعين مهمين من الستراتيجية لا اعتقد أن أحداً غيره سبق له الافاضة في الكتابة عنهما ، وهما ستراتيجيتا التعاقب والتراكم واللتان تكمل احداهما الاخرى بشكل لو أحسن اعدادها لأمكن ربح الكثير من الحروب وبالقليل جداً من الوقت والتكاليف والضحايا ، ويوضح بأن ستراتيجية التعاقب سمة ملازمة للحروب القارية ، أما ستراتيجية التراكم فهي مناسبة للحروب البحرية والجوية والاقتصادية والنفسية ، كما يوضح صعوبة عمل هذه الأخيرة لوحدها (ولا تجد في كل تاريخ الحرب مثالاً واحداً على ذلك) دون ستراتيجية تعاقبية جيدة بل ان ستراتيجية التراكم ومهما كانت جيدة قد لا تستطيع أن تدعم ستراتيجية تعاقبية سيئة الاعداد ، ويقدم بعض النماذج عن سير ستراتيجيتي التعاقب والتراكم معاً دون أن يفطن لهما أحد كما حدث في الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية

الثانية .

في الفصل الرابع يبحث عن مسوغات وجود نظرية في الستراتيجية بعد هذا الاغفال الطويل لدراسة شاملة للحرب قياساً بما يكتب عن نشاطات اقل أهمية ، بل انه ينعى على الباحثين ـ بما فيهم العسكريين ـ تجاهلهم لوجود أربع نظريات عامة صالحة وشرعية في الستراتيجية ، الأمر الذي كان سيساعدهم على اعداد دراسات أكثر تركيزا وشمولية للامكانات وللاحتمالات قبل الاستقرار على الشكل النهائي للستراتيجية التي اختاروها ... « وان كان لأية نظرية عسكرية صلاحية أو شرعية فما ذلك إلا لأن بعض من جربها من العسكريين قد أعطاها ذلك القدر من الصلاحية ... » .

في الفصل الخامس يشرح الكاتب النظريات الأربع السائدة ، أي البحرية والجوية والبرية ونظرية ماوتسي ـ تونك وبطريقة طريفة ومفيدة للغاية أوفت كلاً من النظريات الأربع حقها من التقويم ، بما في ذلك التحديدات المفروضة على كل منها ويخلص من ذلك الى ان كلاً منها يصلح لأن يكون نظرية عامة في الستراتيجية ، إلا أن أياً منها لم يصل بعد الى ذلك بمفرده ولعل النظرية العامة في الستراتيجية تظل أعلى واشمل من هذه النظريات السائدة أو انها قد تتضمن اثنتين منها أو أكثر ، أما نظرية ماوتسي ـ تونك ورغم اعجاب الكاتب بها لبساطتها وصراحتها وحتى لسهولة تنفيذها واخيرا لاثباتها نجاحاً تاماً في هذا العصر الأمر الذي يؤكد صلاحيتها إلا انه لا يفكر فيها إلا بالقدر الذي يساعد على استنباط كل ما يمكن الغرب من مقاومتها وابطال مفعولها قبل أن تجتاح بلدان العالم الثالث والتي لا يزال الفلاحون يشكلون أغلبية السكان أو البحر الذي تسبح فيه «أسماك» ماوتسي ـ تونك .

أما النظرية البحرية فهي تمتلك سجلاً حافلاً من التجارب والخبرات يفوق ما للآخريات ، كما تتمتع بنمط فكري واضح ، وتتألف من شقين ، الأول في فرض السيطرة على البحر والثاني في مد هذه السيطرة الى البر ، ولم يجر تطبيق النظرية بشكل كامل إلا في المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية وبعد ان توفرت للقوات البحرية كل ما تحتاجه من معدات للعمليات الكبرى ، وعدا السيطرة على البحر هناك عمليات

اخرى ترفد النظرية بكثير من الدعم مثل عمليات الحصار والسيطرة الفرعية والسيطرة المحلية وايصال واسناد الجيوش وهي كلها لا تزيد عن كونها وسائل اخرى لاستثمار السيطرة البحرية .

أما النظرية الجوية فهي فريدة في بابها إذ نشأت وتطورت في الفراغ أو انها نشاط فكري محض ودون أن تخضع للتجربة بشكلها الكامل ، وهي تتألف من شقين أيضاً ، الأول في «تحقيق السيادة الجوية» والثاني في «ايقاع التدمير بالعدو» وهي تشبه في كثير من سماتها الحربين النووية والكيمياوية ولكن وقبل أن تتاح لها فرصة التطبيق توسعت آفاق هذه النظرية الى ما يعرف بالنظرية «الجوفضائية» ومع ذلك فليس من السهل تقبل فكرة امكان تحقيق النصر بالقوة الجوية لوحدها وان كانت قد جرت بعض المحاولات في هذا الشأن لاسيما في أواخر الحرب العالمية الثانية إذ احتدم الكثير من النقاش لا سيما حول دور القاصفات السوقية . وقد استقطبت القوة الجوية العديد من الأنصار والمؤيدين من بين ذوي المراكز الخطيرة في حكومات الغرب ، ويعتبر الجنرال الايطالي دوهيه هو الأب الروحي لهذه النظرية رغم بروز أسماء لامعة اخرى مثل ترينجارد وتيدر في بريطانيا والجنرال ارنولد الأمريكي ، وما زالت اطروحات دوهيه هي الأساس المعول عليه في النظرية الجوية . ومع ذلك فقد واجهت هذه النظرية ثلاث معضلات هي : ما إذا كانت الأسلحة النووية ستستخدم أولاً ، وتأثير التكنولوجيا الفضائية وهل يمكن تطوير النظرية الجوية الى نظرية جوفضائية ثانياً ، أما المعضلة الأخيرة فهي القرار على نوع السيطرة المرغوب بتحقيقها وكيف سيحقق التدمير او التهديد بالتدمير هذه السيطرة ؟

أما النظرية القارية أو نظرية كلاوزفتج التي صاغها قياساً على حملات نابليون فهي تعتمد أولاً وأخيراً على مقولة أصبح لها تأثير السحر ومفادها : تدمير جيش العدو بمعركة أو بمعارك حاسمة ، وكلما كانت المعارك أشد ضراوة كلما كانت أكثر حسماً ... وهي النظرية التي تلتصق بالأرض بشكل غريب ولا ترى في البحر والجو سوى عناصر أو وسائل للاسناد والنقل لا أكثر ، والتصاق الجندي بأرضه هو الذي فرض عليه مفهومه الخاص بالستراتيجية وشقيها هما الأرض ، والعدو ، فالأرض هي البداية والنهاية وهي المسرح أو «الساحة» حيث الاشتباك بالعدو وتدميره ، ويصعب على الجندي الفصل أو التمييز بين التبعية والستراتيجية لتداخلهما الشديد أولاً ولعلاقتهما

بالاشتباك مع العدو ثانياً حتى قيل انه كل ما يسبق الاشتباك يدخل في باب السوق أما ما يأتي بعده فهو من التبعية .

أما نظرية «ماو» في حرب التحرير الشعبية فهي نسيج جديد ، ويعتبر ماوتسي ـ تونك مؤسسها والأب الروحي لها أما هو شي منه و (نجوين جياب) و (كاسترو) و (جيفارا) فهم الحواريون الأبناء الذين رعوا وطوروا النظرية وطبقوها بنجاح ، وهي ترفض كل الصياغات الكلاسيكية والجيوش الكبرى وبروليتاريا المدن وقد تجاهلت الكثير من المفاهيم التقليدية الاخرى والتجأت الى الريف فهي أساساً ثورة الفلاحين في حرب من نوع جديد تخلو من الجبهات والجيوش النظامية والقيادات المركزية ولا تخجل من مهاجمة الضعيف والهرب أمام الأقوياء ، انها ثورة «أسماك» ولكنها أسماك من نوع يجيد اقتناص الأعداء وتقويض الأنظمة وتسعى ، كستراتيجية التراكم ، لتجميع آلاف الانتصارات الصغيرة من أجل تقويض السلطة والنظام القائمين تمهيدا لبزوغ العصر الجديد .

في الفصل السادس يؤكد الكاتب ان لكل من النظريات السائدة درجة من الصلاحية والشرعية والانسجام مع الواقع في ظروف بعينها مما أثار انقساماً عاماً بين المهتمين والممارسين إذ توزعوا في تأييدهم على تلك النظريات والى حد التطرف إلا أن المؤكد هو ان أياً من النظريات الثلاث الأولى قد تصلح كنظرية عامة في الحرب ضمن الفرضيات والتحديدات الخاصة بها ، ومع ذلك فلا توجد حتى الآن نظرية عامة مقبولة ومعترف بها في الستراتيجية تصلح لأن تكون العقيدة الرسمية للغرب الرأسمالي ، لأن مثل هذه النظرية يجب أن تكون قابلة للتطبيق في أي من مواقف الصراع ، كما ان عليها أن تستوعب وضمن اطارها الفكري حقائق المفاهيم المحددة لستراتيجية الحرب . وهناك طريقتان لبناء أية نظرية فكرية ، الأولى ببنائها من عناصر وبيانات منطقية ومترابطة ووثيقة الصلة ومحكمة ، أما الطريقة الثانية فتعتمد على شرح الحقائق المطروحة والمفرزة بالتجربة العملية وتفسيرها ، وقد استفادت النظريتان القارية والبحرية من هذه الطريقة الثانية ، وبعد تجاوز النظريات السائدة التي لا تستحق بنظر الكاتب أن تكون نظرية عامة في الحرب يرى ان المفهوم الذي طرحه «ليدل هارت» في

التقرب غير المباشر هو المفهوم الوحيد المعروض حالياً والذي يمكن التسليم باقترابه من متطلبات النظرية العامة ورغم انه يبدو وكأنه أحد أشكال النظرية القارية إلا أنه أوسع من ذلك بكثير وقابل للتطبيق في ميادين الحياة الاخرى غير العسكرية كالاقتصاد والسياسة والعلوم الاجتماعية ، ولعل الأيام ستهيء من يتولى توضيح مفهوم ليدل هارث وتطويره واعطاءه المدى الذي يستحقه .

ان أحد أهم منطلقات ليدل هارث هي ان على الستراتيجي ان يفعل ما في وسعه من أجل أن يجعل العدو يفقد توازنه وقوته ، وبقدر درجة فقدان التوازن هذا ، يقترب الستراتيجي من تحقيق غايته . ويعتقد المؤلف ان السلام بذاته قد لا يكون بالضرورة الهدف المناسب للحرب وهذا أمر مطابق للنظرية القارية ومقولات كلاوزفتج ، كما يمكن تطبيق مفهوم ليدل هارت على النظريتين البحرية والجوية الى جانب انه أكثر انفتاحا وتقبلا لنظرية ماوتسي - تونك كما يخلو مفهوم ليدل هارت من الفرضيات والتحديدات المقيدة رغم الغموض الذي يحيط بمفهوم «اللا مباشرية» ، ولا يخشى المؤلف من ظهور أكثر من نظرية عامة واحدة إذ تستطيع عندها هذه النظريات ان تتعايش كما هي الحال بين النظم الاقتصادية المختلفة بل والمتعارضة الى أقصى حدود التعارض والمهم هو اغناء الفكر الستراتيجي أو أعطاؤه ما يستحقه من الجهد بعد هذا الاهمال الذي لا مسوغ ولا عذر له ، وكخلاصة لموضوع النظريات يرى الكاتب ان النظرية القارية بشكلها الصافي تقول ... « إن الجيوش يجب أن تلتقي وأن أحدها يجب تدميره في معركة حاسمة ... » وهذه هي الحكمة المستخلصة من حروب نابليون ، ولكن لا الجيش الياباني في الحرب العالمية الثانية ولا الجيش الفرنسي بعد هزيمة «ديان بيان فو» قد تم تدميرهما ومع ذلك خضع الطرفان لمشيئة الطرف الآخر . أما النظرية البحرية ففضلاً عن سيطرتها على البحر وامتداد هذه السيطرة الى البر فانها تشتمل أساساً على فرضية مفادها ان المواصلات البحرية عنصر وعامل ضروري في التأثير على سير الصراع . أما النظرية الجوية فتحتوي على فرضية تعد مقدمة منطقية لها وهي ان السيطرة على الشعب المعادي مسألة يمكن تحقيقها وفرضها فعلاً بايقاع درجة من التدمير المادي ، بالقوة الجوية طبعا أو بالتهديد بايقاع ذلك . أما نظرية «ماو» فتستند على فرضية مفادها ان

الفلاحين قوة يمكن استخدامها كقاعدة للثورة .

خصص الفصل السابع للافتراضات الأساسية لنظرية عامة في السوق ، لقد بدأ الكاتب تركيز مقترحاته للنظرية العامة التي يراها ملائمة للغرب أكثر من غيرها والخطوة الأساس الأولى هي صفحة التخطيط الستراتيجي كأداة تفسيرية تختارها القيادة العليا من أجل بناء الستراتيجية وتتولى في هذه المرحلة عملية تحديد جانبي الستراتيجية المفاهيمي والعملياتي ومن ثم الربط بينهما ، وبعبارة اخرى صياغة خطة أو خطط الحرب والتي هي في النهاية حلقة الوصل ما بين الهدف ومنظومة الوسائل - أي ما بين الفكر والعمل (الواقع) ، والغاية الكبرى للحرب هي تحقيق درجة من السيطرة على العدو بعد أن يفقده توازنه ، واضعين نصب أعيننا حقيقة لا مفر منها وهي ان النمط الأول للحرب ليس مما يمكن التنبؤبه بسهولة وان علينا تبعا لذلك التحسب ، ولمواجهة أكبر عدد ممكن من الاحتمالات وتهيئة مجموعة من الستراتيجيات التي تتلاءم وأية مواقف محتملة أو متوقعة ، أن نحتفظ بقلاعنا بحالة جيدة وان نصمد لحين انجلاء الموقف وتبلور ظروفه .

يرفض المؤلف القاعدة التي يسلم بها الكثيرون كبديهة لا يطالها الشك والتي تقول (ان الحرب هي استمرار للسياسة) ورغم اعتماد هذه القاعدة في مرحلة التخطيط من قبل الكثيرين إلّا ان المؤلف يرى أن الحرب بذاتها تعني أولاً وقبل كل شيء فشل سياسة ما قبل الحرب ، وانها (أي الحرب) ستغير كثيرا من الشكل العام والأطر السياسية في العالم بسبب هذا الانهيار التام لسياسة ما قبل الحرب ، أما عن عالم ما بعد الحرب فهو يؤكد ان ما من أحد على الاطلاق كان قادرا على أن يتنبأ بالشكل الذي سيبدو عليه عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية وإلّا لامتنعت معظم الأطراف عن الانجرار إليها ، وكذلك - يقول المؤلف - ما كان الاتحاد السوفيتي سيتورط بالتقدم نحو كوريا الجنوبية بل وحتى ما كانت الحربان العالميتان لتنشبا أساساً ، هذا عدا عن ان سياسات ما قبل الحرب لن تكون ذات قيمة لعالم ما بعد الحرب ، ومع ذلك فقد يمكن اعتبار الحرب استمرارا لسياسة حماية الأمن القومي (السلامة الوطنية) بشكل أو آخر فقط . وذلك يقودنا الى آخر ما يفرض نفسه في التخطيط الحربي والذي قد ينسجم مع

فكر كلاوزفتج وهي أن وجود الجندي في الساحة (ساحة العمليات) قد يكون ضرورياً في كثير من الأحيان لحسم الموقف نهائياً .

في الفصل الثامن يعلن المؤلف اننا وصلنا الى أربعة أفكار حول الحرب وستراتيجيتها وهي :

١ ـ ما زال احتمال نشوب الحرب قائماً .

٢ ـ سيظل هدف الحرب تحقيق درجة من السيطرة .

٣ ـ لا يمكن التنبؤ مقدماً بنمط الحرب الأولي .

٤ ـ ان الاداة النهائية للسيطرة في الحرب هي الرجل مع أسلحته في مسرح العمليات .

فالحرب إذن منازلة شاقة بين طرفين أو أكثر يسعى فيها (البادىء أو المعتدي) بفرض درجة من السيطرة على عدوه ولو لم يكن قادراً على ذلك فما كان ليبدأ الحرب أساساً . أما الطرف الآخر أو (المدافع) فيحاول منع العدو من تحقيق ذلك والعمل على تهدئة الموقف أو تجميده وإلا خسر الحرب نهائياً ، أما اذا نجح بتحقيق درجة التوازن المطلوبة فيستطيع عندها أن يفرض نمطه على الحرب فيما يعرف بـ« أخذ المبادأة » ولعل هذا هو ما عناه الماريشال فوشي بصراع الارادات ، وهنا أيضاً تظهر مهارة الستراتيجي ، والمعضلة الأساس هي في ألاستقرار على حجم ومكان مركز الثقل الرئيس للحرب وكيفية تحريكه ، والتأثير والسيطرة عليه وبأية درجة محدودة أو غير محدودة لا تقدران بثمن ، بل لعلها المفتاح السحري في ادارة الحرب وتتطلب لذلك قدراً كبيراً من الادراك لدى الستراتيجي أو رجل الدولة . لذا فإن أية ستراتيجية أو نظرية عامة في الحرب لابد لها أن تكون تطويراً للمقولة الأساس في : ان هدف الستراتيجي في ادارة الحرب هو تحقيق درجة من السيطرة ، وهذه لا يمكن أن تتحقق إلا بالفرض أو ألتحكم بنمط الحرب : ويقدم ألكاتب لذلك وبشيء من التفصيل ثلاثة أمثلة من التاريخ العسكري : الأول عن صراع هانيبعل مع سيبيون الأفريقي والثاني من الحرب الأهلية الأمريكية والثالث من الحرب العالمية الأولى (الانزال في غاليبولي) وتدور جميعها حول مراكز الثقل الستراتيجية للحرب ومدى خطورتها على الحرب كلاً .

في الفصل التاسع وبعد أن يجعل الكاتب من مفهوم ليدل هارت في التقرب غير المباشر نظرية عامة خامسة في الحـرب يرى أنها جميعها تنسجم وتندرج ضمن النظرية العامة التي يهدف اليها الكاتب والى الحد الذي تتوافق فيه الفـرضيات العـامة لتلك النظريات وتتطابق مع حقائق أية مواقف ستواجه أياً منها ، ففي مجتمع زراعي مثلاً سيصبح من السهل جدا تطبيق نظرية مـاو ، وكذلك الحـال مع النـظرية الجـوية أو (الجوفضائية) اذا كان للتدمير الجوي ان يحقق الدرجة المطلوبة من السيطرة وينطبق الشيء نفسه على السيطرة على البحر والمواصلات البحرية في النظرية البحريـة ، أما النظرية القارية فـإن ضخامـة جيوش العـالم من جهة (وارغـام العدو بـالرقص على موسيقانا) كفيلان باضفاء الشرعية المطلوبة عليها ، والمهم هو توافق فرضيات النظرية العامة مع الواقع المعاش للحرب ، فاذا ما نجحنـا باسقـاط صحة الفـرضيات التي يعتمدها العدو أولاً نكون عندها قد اقتربنا كثيرا من النصر ، وثانياً فان التكنولوجيا المتقدمة وبقدرما عقدت من منهجية العسكريين وقناعاتهم حول الاحصائيات وزادت من قيمة الأسلحة وتأثير الكلفة في الحساب النهائي ، فإنها ـ أي التكنولوجيا ـ قد فرضت على الســتراتيجي الاعتماد على الحسابات العلمية أكثر بكثير من السابق وهذا يقودنا الى ضرورة التحام جهود العسكريين والسياسيين والاقتصاديين والفلاسفة في موضـوعة الحـرب وقد لا يدعو الأمر الى بناء دين جديد ـ للغرب ـ ولكن المطلوب أن يتم انجاز ما لا بد منه بطريقة أكثر عقولية .

في الخاتمة يلخص الكاتب ما قام به من ايضاح للموقف أو الحالة التي ـ هم ـ عليها الآن ، وعن نظريات القوة العسكرية الموجودة حالياً وتحديداتها وكيف انها لم تعد بمعزل عن نشاط الفيلسوف ـ السياسي ، وكيف تأكد له ان «السيطرة» وبأي شكل كانت هي القاسم المشترك في جميع صراعات السلطة ولذا فلا يمكن عزلها أو التعامل معها على انفـراد إلا في حالات نـادرة ولا سبيل للخـلاص منها لتـداخلها مـع نسيـج القـوى الاجتماعية ، لذا فإن نظرية عامة في الســتراتيجية هي وفي الوقت نفسه نظرية عامة في « السـلطة Power » وان مركز الثقل «الســتراتيجي» هو النقطة المـركزيـة في تطبيق السلطة من أجل التوجه نحو مفهوم السيطرة كهـدف مع منـظومة الوسـائل الكفيلة

بتحقيقها .

وبعد فهذا كتاب في فلسفة الستراتيجية ـ وكلتاهما مما يسببان صداعاً شديداً في الرأس ـ ويشكل بحثاً لا بد منه لكل من يحاول تفهم طريقة بناء الستراتيجية في القوات المسلحة أو أية مؤسسات سياسية أو اجتماعية كبرى كالأحزاب مثلاً وعلى مستوى الدولة أيضاً ، أما اتفاقنا مع أفكار واطروحات المؤلف أو عدمه فأمر آخر ، ويذكر مؤلف كتاب « ستراتيجية للغد »[1] عن الكتاب الصغير والمثير ـ الذي بين أيدينا ـ ان هناك أربع ستراتيجيات أو أربع مدارس فكرية (مفاهيمية) من حيث المبدأ .... إلا أن مفهوم ماوتسي ـ تونك هو أقرب الى مجموعة من الأساليب التي استخدمت لتحقيق السيطرة القارية ، أكثر من كونها مفهوماً ستراتيجياً شاملاً جديداً تصبح اضافته الى المفاهيم السائدة حالياً ، ومع ذلك فقد كان الاميرال وايلي مصيباً بإيضاحه أن هناك تداخلاً ونوعاً من التفاعل المتبادل بين المفاهيم الأربعة ، لذا فليس من السهل إذن اعتبار أي منها قادرا على تلبية متطلبات كل المواقف والظروف وهو مصيب أيضاً في التأكيد على أن هدف الحرب هو ممارسة سيطرة من نوع ما ، وبدرجة ما على العدو ، وانه من غير الممكن التنبؤ وبشيء من الدقة عن طبيعة أو نمط الحرب المقبلة ولذا يتوجب علينا توفير مجموعة خيارات أو بدائل ، وان تكون لقوتنا العسكرية قدرة أولية على خوض أي نوع من القتال ... علينا أولاً منع العدو من تحقيق انتصارات حاسمة حال اندلاع الحرب وان نتماسك لحين اتضاح حقيقة نمط الحرب الدائرة وطبيعتها واتخاذ القرار من ثم لمواجهة متطلباتها الخاصة ... ص ٣٢٨ »[1] .

لقد توصل مؤلف كتاب «ستراتيجية للغد» في الفصل الأخير من كتابه الى اقتراح ستراتيجية بحرية أو محيطية جوية أو نظرية تمزج ما بين المفهوم البحري للامبراطورية البريطانية مع التكنولوجيا المتقدمة أنها أفضل ما يلائم الولايات المتحدة . أما الأميرال جي.سي. وايلي فإن أهمية كتابه الذي بين أيدينا تتأتى من تركيزه المفاهيمي ودقته البالغة وتناوله الموضوعات البالغة الأهمية بطريقة مباشرة كما انه يمثل منطلقا يمكن احتذاؤه ، ورغم أنه لم يعلن صراحة عن الشكل العام للنظرية العامة التي يفضلها إلا انه يظهر ميلاً

(١) الكتاب من تاليف هانس بالدوين ترجمة اللواء الدكتور محمود خيري بنونة ـ المكتبة الأنجلومصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ .

شديداً الى مقترب ليدل هارت في : « التقرب غير المباشر » ويؤكد إمكـان تطويـر هذا المفهوم واجلاء بعض الغموض الذي يرافقه كي يحوّل الى نظرية عامة للغـرب وليس للولايات المتحدة فقط ، نظرية أوسع مدىً من المسيحية وأقوى من الشيوعية ، ولعل في المثال الذي يورده ليدل هارت نفسه فيما يلي خير ايضاح لمفهوم « التقرب غير المباشر » في العمل ، إذ يفترض ليدل هارت انه أصبح رئيساً لأركان ستالين ـ أيام الحرب الكورية ـ فيقترح عليه أن تتولى القوات السوفيتية وبعملية سريعة تدمير وأسر القوات الأمريكية في كوريا لتحطيم هيبة الولايات المتحدة وتقليم أظفارها ولكن ستالين يرفض المشـورة ، ويعلن انه لن يفعل ذلك بـل سيترك للقـوات الأمريكيـة أن تحطم نفسهـا في الوحول الكورية ، وانه ـ أي ستالين ـ قادر ، ساعة يشاء ، على الاطباق عليها .... وهكذا نرى أن المهم ليس أن تقاتل بل المهم أن تحقق ما تريد ... أن تنتصر ، وفي ادارة الصراع هناك مقتربات كثيرة ليس الحـرب أفضلها دائماً ، ولعل (التقرب غير المباشر) يقدم الحل الأفضل ، ألم تقل الحكمة الصينية شيئاً مثل ذلك « لا تقاتل عدوك ، بل اجلس على حافة النهر وانتظر أن ينقل تيار النهر جثته يوماً ما .... » ويعترف ليدل هارث ان ستالين كان أحكم منه بكثير ؛ كما ان الحـرب بالنيابة هي الأخرى لا تزيد عن كونها احدى تطبيقات التقرب غير المباشر ولكن بأدوات الصراع المسلح مباشرة .

لقد جابهتني صعوبات جمة في ترجمة هذا البحث لعل أبرزها المعضلة اللغوية ويكفي أن أذكر ان الكاتب نفسه اشتكى ولأكثر من مرة من صعوبة عثوره على الكلمات المناسبة للتعبير عن أفكاره رغم التراث الفكري والسـتراتيجي الضخم في الغرب فكيف كان الأمر معي إذن ؟ واعترف انه وبدون المساعدة الكبيرة والجمة التي أمدني بهـا بعض الأفاضل لما أمكن لهذا الكتاب أن يصل الى مـا وصل إليـه الآن ولذا أجد من الواجب عليّ أن أقدم جزيل الشكر والامتنان الى كـل من السيدتـين (ر.ع) و (خ.ع) لمساعدتهما في ترجمة النصوص الانكليزية كما أتقدم بالشكر والتقدير لأستاذي الفاضل الدكتور صالح جواد الكاظم الذي تفضل بقراءة مسودة الكتاب وقدم لي كثيراً من النصح والتوجيه كما صحح الكثير من العثرات وأخيراً أقدم شكـري وامتناني للأخ العقيـد

المتقاعد رشيد صالح ، لما ابداه من صبر طيب وتسامح اخوي في مراجعة الكتاب وتدقيقه وتقويمه ، سائلاً الله تعالى ان يجزيهم عني خيراً .

واعتذر من اعماق قلبي لكل من سيقرأ هذا الكتاب عما سيسببه له من صداع ، فقد تكون هناك أخطاء اتحمل انا مسؤوليتها .

والله ولي التوفيق وبه نستعين .

سليم شاكر الامامي

١٩٨٦/٧/٣٠

مقدمة المؤلف

قبيل بضع سنوات زار الفيلد مارشال مونتغمري الجنرال أيزنهاور في كيتسبرج[1] ، وقد أوليت هذه المناسبة أهمية بالغة بسبب الانتقادات العديدة التي وجهها مونتغمري لأسلوب ادارة المعركة التي تحمل اسم المدينة «كيتسبرج» والتي دارت رحاها قبل أكثر من مائة عام في ذلك المكان ، ووجه الغرابة في تلك الحادثة هو أن الانتقادات قد صدرت هذه المرة عن رجل محترف وليس عن أحد الهواة ، ومع ذلك فان انتقادات مونتغمري تلك لم تكن أفضل أو أسوأ من آلاف الانتقادات الاخرى حول تلك الحرب أو غيرها فكل التعليقات والانتقادات السوقية (الستراتيجية) الاخرى كانت في الأساس انتقادات ارتجالية ولا تمثل في النهاية سوى أحكام شخصية أو حدس عاطفي فج متسرع ، أو انحياز شخصي ، بل وحتى أكثر من ذلك فهي قد تخفي وراءها وفي كثير من الأحيان دوافع ومصالح شخصية ، ويبدو أن الميزة الوحيدة التي يتمتع بها المحترفون دون الهواة إنما تتمثل بما اكتسبوه من خبرة شخصية قليلة ، وقلما يتساءل المرء عما إذا كان لهذه الخبرات الشخصية في الواقع أية صلة بالموضوع المطروح بين أيدينا الآن .

أود أن أذكر هنا أنني لا انتقد الستراتيجيين الهواة ، بل وعلى العكس من ذلك فإنني اعتقد اعتقاداً جازماً أن الستراتيجية هي من الأهمية بمكان بحيث ينبغي أن تكون محط اهتمام الجميع ، بل ان كون حياة الكثيرين جداً من الناس في خطر يدفعنا لاعتبار الستراتيجية من الموضوعات العامة التي يعد الاهتمام بها أمراً مشروعاً وذا أهمية ، إلا أن ما أرفضه وبشدة هو أن الستراتيجية وبكل ما لها من قوة وتأثير واضحين في مسار المجتمعات وحياتها ، ما زالت عبارة عن نشاط فكري يعوزه النظام والتركيز ، كما أني أؤمن بضرورة تطوير هذه الحالة ، وما أحاول القيام به في هذا الكتاب المقتضب هو شرح الأسباب التي تجعل مناهج تفكيرنا السائدة حالياً وطرائقها عن الستراتيجية سطحية ومبتسرة وأن استعرض ـ باختصار ـ جميع النظريات الحالية في السوق مع الاشارة الى تحديدات كل منها ومن ثم التأمل بنظرية عامة في السوق يمكن أن توفر بدورها قاعدة أساساً لفكر ستراتيجي أكثر انتظاماً وفاعلية من تلك

---

(١) مدينة جنوب ولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة وقد جرت فيها معركة حاسمة خلال الحرب الاهلية الامريكية عام ١٨٦٣ .

المفاهيم التي سادت سابقاً .

لن تتضمن النظرية العامة التي سأقترحها أو أية نظرية بديلة اخرى - أفضل - وقد يقترحها غيري ، ستراتيجية ناجحة أكثر مما يمكن أن تتضمن أية نظرية سياسية سليمة قيام حكومة ناجحة ، فالنظرية يمكن أن تؤمن نقطة انطلاق متوازنة ونظامية تمكننا من مواصلة التقدم والاستفادة من الحقائق التي بين أيدينا لاستنباط ستراتيجية وضعت من أجل هدف خاص وصياغتها وتنفيذها ومن ثم تحليلها ونقدها .

أمامنا الكثير مما يجب عمله وينبغي انجاز الكثير منه قبل أن نستطيع فرض القدر الضروري من النظامية على مواقف هي فوضوية بطبيعتها ، ولكن وحتى قبل أن نستطيع التنبؤ بما لا يمكن التنبؤ به أبداً ، وقبل تطبيق الخبرات المناسبة على مواقف جديدة أساساً في عصرنا هذا ، والذي يزخر بالثورات التكنولوجية والاجتماعية الهائلة ، ونظراً للتأثيرات المهمة للعديد من الأقسام المنفصلة لتلك الثورات الاجتماعية والتكنولوجية فلعل الجانب الأهم والأكثر حيوية من بين جميع الجوانب الأخرى في صياغة النظرية العامة والمشروعة في الستراتيجية ، الجانب الذي يتمتع بشيء من المصداقية هو التأكيد والحرص على أن اهتمامنا الجاد بالأشجار لن تحجب عنا رؤية الغابة .

لا أعرف ولا أستطيع أن أقرر ما اذا كانت تأملاتي هذه في نظرية عامة للستراتيجية يمكن أن تمتلك شيئاً من المصداقية ولكن من البديهي أنني أؤمن تماماً بامكان ان تنال ذلك وإلا لما طرحت هذه التأملات أساساً ، وبما انها قد ظهرت في الكتاب الذي بين أيدينا الآن فسأترك الخطوة التالية لآخرين غيري . فإذا قدر لهذا الكتاب الصغير المختصر ان يغري أو يدفع أي شخص آخر لتنقيح أو تعديل ماسأعرضه هنا أو حتى أن يقدم شيئاً آخر مختلفاً عنه فسأعتبر ان كتابي هذا قد أدى الغرض الذي أعد لأجله ومن البديهي ان أعلن هنا ان جميع الآراء والأفكار والمعتقدات التي سترد في هذا الكتاب تخصني أنا ولا تعكس وجهة نظر رسمية ولا حتى وجهة نظر دوائر البحرية الأمريكية[٢] أو آراء ووجهات نظر وزارة الدفاع الأمريكية بأي شكل من الأشكال .

جي.سي. وايلي

---

(٢) عمل المؤلف في البحرية الامريكية وصدر كتابه هذا عن مطبعة جامعة روتجرز - نيو برونزويك - نو جرسي - الولايات المتحدة الامريكية .

الفكر العسكري والستراتيجية[1]

(١) السوق كلمة عربية مرادفة للستراتيجية في كل مجالات استخداماتها . كما كانت اكثر شيوعاً قبل انتشار مصطلح «الستراتيجية»، ولكن ولشيوع استخدام الكلمة الغربية على نطاق اوسع ، وحتى على مستوى الوطن العربي ، فقد آثرنا استخدام الكلمتين معاً وبالمعنى نفسه او المفهوم وان كنت افضل الاقتصار على الكلمة العربية .
ـ المترجم ـ

الفكر العسكري عبارة ملفتة للنظر حقاً بل وقد تبدو محيرة الى حد ما ، وقد استخدمت ولسنين طويلة للاشارة الى مهنة الجندي المحترف ومهاراته ، ذلك الجندي سليل العوائل النبيلة من ذوي البزات الأنيقة والقوام الرشيق والذي تربى على صليل السيوف وروح الفروسية العالية ، والذي ما كان يطيق الجدية في اي من مجالات الحياة ، وقد تكون هذه الصورة ساخرة أكثر مما يجب عن الجندي أو حتى عن أخوته وأبناء عمومته في الخدمات المسلحة الأخرى ، أي - البحرية ، والطيران - إلا أن هذه الصورة قلما كانت - لحسن الحظ - دقيقة أو عامة بشكل مطلق ، بل حتى ليمكن تجاهلها .

وعلى العكس من ذلك فهناك في الواقع ، وعلى مدى التاريخ العام الكثير من العقليات العسكرية المبدعة وذات الفكر الخلاق على المستويين الفردي والجماعي . ان محصلة مثل هذا الفكر العسكري من شأنها أن تحدث عاجلاً أو آجلاً وكما حدث في الماضي ، تحدث تأثيرا مهما وعميقا في حياة الأمم والمجتمعات ، بل وفي حضارة العصر كلاً .

وكمقدمة منطقية لهذه الدراسة أقول اننا لا نعرف عن الفكر العسكري حتى ولا النزر اليسير مما نعرفه عن العديد من الميادين والأمور الجوية الاخرى ، والنتيجة المنطقية لكل ذلك هي اننا أصبحنا لا نعرف عن هذا الميدان الحيوي ولو الحد الأدنى مما يفترض فينا معرفته .

كان الفكر السياسي ، مثلاً ، ولقرون عديدة موضوعاً لدراسات وتحليلات مكثفة ومستمرة ، كما كان لنتائج ذلك الفكر في العمل وكذلك لنتائج بحوث ودراسات العقليات السياسية الرائدة تأثير كبير ومهم في سير أحداث الحياة البشرية ، فتأثير جون لوك في توماس جفرسون أو تأثير (باريثو) في موسوليني أو تأثير توماس جفرسون في جان جاك روسو أو تأثير موسوليني أو ونستون تشرشل في حياة الرجال الآخرين غني عن التعريف .

كان الفكر الاقتصادي هو الآخر موضعاً للبحث والتحليل والشرح والتأويل من قبل آلاف الرجال وعلى الصعيدين الرسمي وغير الرسمي في المؤسسات الحكومية والشركات الكبرى والجامعات ومعاهد البحث ومن قبل الاقتصاديين الاختصاصيين

بأنفسهم ومن قبل كبار الرسميين وغيرهم ، وبمختلف الأشكال في حياتهم اليومية . ان مبعث الاهتمام هو معرفة لماذا وكيف فكر رجل الاقتصاد بالطريقة التي فكر بها . والذي يعني في النهاية لماذا فعل ما فعله حقاً . واذا ما ساورك أي شك في أن المفاهيم الاقتصادية يمكن أن يكون لها تأثير كبير في الممارسات والفعاليات الاقتصادية فما عليك إلا أن تتذكر ولو للحظة واحدة تأثير كل من آدم سمث وكارل ماركس وكينز وهنري فورد في العالم الذي نحيا فيه في أيامنا هذه .

وهكذا هو الحال في جميع ميادين النشاط الانساني الاخرى فجميع ميادين العمليات الاجتماعية قد طورت أنواعاً من الدراسات المنتظمة والمنضبطة والتي كانت تهدف الى معرفة لماذا وكيف فكر الرجال وطبقوا ما فكروا فيه في هذا أو ذاك من الميادين العامة . وجميع ميادين النشاط الانساني تلك فعلت ذلك ـ أي تطوير وتنظيم الدراسات الخاصة بها ـ باستثناء ميدان واحد فقط ليس إلا ، وانه لأمر محير ومثير للدهشة والعجب حين ندرك ان جميع تلك الميادين الواسعة الضخامة للأنشطة والفعاليات الانسانية ـ أي الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية وكل الميادين الاخرى ـ إلا هذا الغليان الهائل والمدمر الذي يسمى الحرب ، فهي لوحدها لم تدرس بعد بذلك القدر من الموضوعية والمنهجية واللتين كانتا ستقودان الدارسين الآخرين والممارسين وكثيرين غيرهم لادراك وتفهم عميقين لنمط تفكير أساس وعقلاني لنظرية أثرت أو كان يمكن أن تؤثر في ادارة الحرب . وان تؤثر في القضية المركزية الأكثر اهمية مما عداها وهي ما اذا كان من حق شعب أو أُمة ما أن يعيشا وأن يواصلا بناء الحضارة أم لا ! .

ولسنا نلقي القول على عواهنه هنا ولدينا من القرائن والأدلة والاستشهادات التي تؤكد الفكرة التي أوردناها تواً عما اكان يمكن أن يتوفر للفكر العسكري ، وتبرز أمامنا ابتداءً أسماءً لمعت في التاريخ العسكري ، مثل كلاوز فتج أو جوميني أو ماهان وهناك أيضاً أسماءً ستة لرجال آخرين غيرهم . حقاً ان أولئك الرجال العظام ـ أو معظمهم ـ كانوا تلامذة في مدرسة الحرب . فقد اكتفى البعض منهم بالتأمل في الحرب بينما تولى البعض الآخر استكشاف بعض جوانبها والآخر كان مهووساً بها والآخر تولى دراستها بشكل عشوائي أو كيفما اتفق . وهناك آخرون غيرهم كانوا مجرد مجموعة من الرجال

الثرثارين والى حد الابتذال أحياناً ، اتبعوا في أعمالهم أساليب بالية وفجة . نخلص من ذلك الى انهم جميعاً لفوا وداروا وشعوذوا حول أحداث وتفاصيل أو احصائيات معينة للحرب ، أو اكتفوا بدراسة جزء أو أجزاء صغيرة من هذا الموضوع البالغ الضخامة والأهمية ، وفسر كل منهم الحـرب كما شاء أو شاءت له دوافعه واهتماماته ، ولم يكلف أيٍّ منهم نفسه بمهمة ان يوضح ولو بطريقة سهلة ومبسطة لماذا ، ترى ، أُديرت الحـرب بالطريقة التي أُديرت بها ؟ ولماذا يفكر الجندي كجندي ؟[٢] ولماذا يفكر الطيار كطيار ولماذا يفكر البحار كبحار ؟ وان يتولى من ثم معرفـة القليل مهمـا بلغت قلّته عن تلك المعضلات الشائعة في ميادين الفكر العسـكري كالتحول الى التطبيق المباشر ، فهل ان عملية التفكير السوقي هذه أو تلك هي الأفضل لتطبيقها على هـذا الموقف المعـين أو ذاك ؟ .

ان الفكرة بذاتها ـ ومهما كانت ـ شيء قوي بل وقوي جداً ولطالما أثرت الأفكار والمفاهيم السياسيـة أو الدينية أو الاقتصـادية في اقـدار الناس وحيـاتهم بل غـالباً ما سيطرت عليها ، ولكن القليل جداً من الرجال بمن فيهم أولئك الذين امتلكوا ناصية مثل تلك الأفكار قد أدركوا وتنبهوا الى المفاهيم السوقية المسيطرة وكذلك الى النظريات المختفية خلف سحر المأساة الحقيقية للحرب نفسها أو نتانتها أو اشراقها .

ليس بوسعي إلا أن أميل الى الاعتقاد بأننا ان أردنا تفهماً أفضل لمسارات الفكر السوقي في العمل ومساربه فحري بنا أن نقيِّم صلاحيـة وشرعية وصحـة ما تفتـق عنـه هـذا الفـكر .

وكوسيلة من وسائل البحث التاريخي يبدو لي ان هذا المنحى جذاب وواعد ، أي البحث في النتائج والنهايات : لماذا رُبحت حرب ما أو خُسرت ، أو لماذا أدت الى نتائج ونهايات بعينها ؟ إلّا ان الفائدة الحقيقية للدراسة قد تكمن على ما اعتقد في إمكان توفر ما يكفي من بحوث نقدية وتقييمية أكثر عمقاً للستراتيجيات المقترحة والتي لم توضع

---

(٢) الرمز هنا ـ اي الجندي ـ يشمل جميع قادة القوات البرية او الجيوش والمعضلة التي يحاول المؤلف تشخيصها هي هذا الانقسام في « الفكر حول الحـرب » او ليس المطلوب إذن ان يفكر الجندي لا كقائد بري فقط بل عليه ان يرتفع الى المستوى السوقي وان يمتد نشاطه الفكري لا ليشمل جميع الميادين العسـكرية الاخرى كالجوية والبحرية حسب ، بل وجميع ميادين النشاط الستـراتيجي ايضاً وينطبق ذلك على القادة الجويين والبحريـين والسياسيين .

ـ المترجـم ـ

موضع التجربة والتطبيق بعد .

أسعى في دراستي هذه لتفحص بعض أنماط التفكير التي يستخدمها الفكر العسكري في الواقع أو التأمل في البعض الآخر منها والتي يجدر بالفكر العسكري استخدامها .

ان تفهماً أفضل للمفكرين العسكريين والوقوف على الأسباب التي دفعتهم الى تبني أفكار معينة ، مثل لماذا يفكر الجنرال كجندي ؟ والأميرال كبحار ؟ ولماذا يقف الطيار منفرداً عنهما من حيث المبدأ وبعيداً عن كليهما ، وكذلك لتفهم أي من تلك الأنماط الفكرية هو الصالح ، والمشروع وتحت أية ظروف ؟ تلك هي الأسئلة التي لم تطرح بوضوح بعد ، ومن تحصيل الحاصل انه لم يُجب على أي منها بالدقة والوضوح المطلوبين .

عندما يكتب العسكريون المحترفون فانهم يتناولون الحقائق والتفاصيل العملية عادة أو يقتصر تناولهم على تلك الجوانب التي تدربوا على التعامل معها ، وغالباً ما كانوا ، وهم يفعلون ذلك ، واضحين ودقيقين على نحو رائع ، ومن الناحية الأخرى فإن مهمة دراسة فكرة ما أو تشريحها أو تحليلها ينبغي أن توكل الى العلماء والباحثين . إلا أن هؤلاء لم يقوموا بذلك ، ومن الصعب معرفة أسباب ذلك . ومن بين جميع المجالات التي وجهت نحوها القدرات البشرية نرى أن الحرب قد سببت لوحدها من المشاكل والمصائب أكثر من اي شيء آخر ، فالحرب تعني وتشتمل على الموت والدمار والخيبة السياسية والفوضى الاقتصادية والارتباك الاجتماعي . ولقد نجح العلماء والاختصاصيون وبلا مبالاة تامة ـ لا يمكن تبريرها ـ تقريبا في تجاهل معضلة النظريات وتأثيرها في ادارة الحرب[٣] .

يتسم أدب الحرب وستراتيجيتها ـ في الغرب ـ[٤] بالفقر والضعف والسذاجة

---

(٣) هناك الكثير من كتابات الاختصاصيين في المسائل العسكرية في العقدين الاخيرين ، إلا ان معظم تلك الكتابات قد وجهت لدراسة مشاكل معينة ثارت في حينها اكثر من توجيهها نحو اوجه ومظاهر « مفهوم » استخدام القوة ولا يمكن اعتبار هؤلاء باكثر من حلالي مشاكل آنية فقط ولا تعدو هذه الطريقة الخاصة وبكل بساطة اكثر من استمرار لممارسات العسكريين المحترفين .

(٤) اضافة الناشر : لان الغرب هو محور بحث المؤلف وتطبيقاته .

ـ الناشر ـ

والسطحية الى درجة تثير الدهشة والاستغراب ، ومن بين جميع المفكرين والقادة والمنظرين الذين كتبوا عنها أو حولها ومهما كانت نوعيات كتاباتهم فاعتقد ان سبعة منهم فقط أسهموا إسهامات مرموقة في جعلنا نفهم الحرب على نحو أحسن ، وأثروا ، بقوة الفكرة ، في مسار الحرب ولو بدرجات متفاوتة من القوة والاتساع . وترتيب أسماء الرجال السبعة هؤلاء زمنيا وكما يرد ذلك في ذهني هو على التوالي : مكيافيللي وكلاوزفتج وماهان وكوربيت ودوهيه وليدل هارت وأخيرا ماوتسي ـ تونك . وقد يكون من السابق لأوانه اضافة اسم البريطاني ليدل هارت الى تلك الأسماء ، إلّا اني اعتقد وبشدة ان مكانة هذا المفكر الستراتيجي ستتعاظم كلما ساعدت الظروف وتوفرت الفرص المناسبة لدراسة أفكاره ونتاجاته وغربلة آرائه وتعليقاته الفنية المعاصرة ، لتبقى اسهاماته الفكرية الأكثر ثباتاً وقوة . أما إن كنا نتفق أولاً مع أي من أولئك الرجال السبعة فهو أمر لا أهمية له فالحقيقة هي أنهم جميعاً قد أسهموا ، بقدر أو بآخر ، في اغناء الفكرة وأثروا الى حد معقول في مسار الحرب وفي حياة الشعوب . وعلى حد علمي فإن واحدا منهم فقط كان عالماً متدرباً[٥] أما الآخرون فقد شقوا طريقهم الى عقول الرجال بفعل القوة المجردة للفكر .

لا أدعي ان هذا الكتاب الصغير سيتناول جميع الجوانب العلمية للحرب ، تلك الجوانب التي ما زالت بنا حاجة ماسّة إليها ، كما اني لم أسع لذلك أساساً ، ولا يشكل الكتاب بمجموعه وحدة متماسكة حول فكرة أو مقولة مركزية . والى ذلك الحد فهو غير ملتزم بشيء ، وأحد الأسباب ـ ولعله ليس السبب الرئيس أو الحاسم ـ هو أنني لم أجد أية دراسة شاملة وكافية قد أحاطت بموضوع الستراتيجية كلاً رغم أن مكيافيللي وليدل هارث قد اقتربا من انجاز شيء كهذا أكثر من جميع الكتاب الآخرين .

أما ما يتعلق بالسَوق بوصفه موضوعاً للدراسة فان اطاره الفكري لم يتحدد بوضوح بعد ، كما لم تتوفر له المفردات اللغوية المناسبة والكافية بل يمكن القول انها غير

(٥) السير جوليان كوربيت (١٨٤٥ ـ ١٩٢٧) وكان من العلماء وقد تخرج في جامعة كمبرج ومنح الاجازة في القانون ومارسه ما بين ٧٩ ـ ١٨٨٢ وانصرف بعدها الى الادب ، وحاضر في الكلية البحرية الملكية (١٩٠٢) وفي جامعة اكسفورد (١٩٠٣) وكلية الملك ـ جامعة لندن (١٩٢١) ومن مؤلفاته في تاريخ البحرية ، حلفاء دريك ، عام (١٩٠٠) و ، انكلترة في الابيض المتوسط ما بين ١٦٠٣ ـ ١٧١٤ ، عام ١٩٠٤ ، وكتاب ، انكلترة في حرب السنوات السبع ، عام (١٩٠٧) وكتاب ، حملة الطرف الاغر ، عام (١٩١٠) وكتاب ، بعض مبادىء الستراتيجية البحرية ، عام (١٩١١) وكتاب ، العمليات البحرية ، في ثلاثة مجلدات صدرت ما بين (٢١ ـ ١٩٢٧) .

موجودة ، وهذان الواجبان الأساسان بهما حاجة ماسة لمن يتصدى لانجازهما ، وهما : أولاً ، إيجاد نوع أو نموذج نظري شامل . وثانياً : استنباط الكلمات الملائمة وتطويرها والتي يمكن استخدامها في موضوعات الستراتيجية ، وأخشى أن لا يتم انجاز هذين الواجبين إلا بعد أن تأخذ الستراتيجية المكانة التي تستحقها في عالم الفكر اسوة بغيرها من النظم الاجتماعية أو (العلوم الاجتماعية) ان أردنا استخدام أوصافٍ أكثر انسجاماً ، مع انه وفي الوقت نفسه أكثر اثارة للتساؤل والدهشة ، وكواحد من مجالات النشاط الانساني فان الحرب وستراتيجيتها تستحق عن جدارة ، مثل هذا الاهتمام .

وقبل المضي في هذه المناقشة لابد من ايضاح ثلاث نقاط هي :

أولاً : اننا لا نتكلم هنا عن معارك بل عن الحرب ، فهناك وكما نعرف العديد من الكتب كما ان هناك الكثير من التفهم الجيد للمعارك ، بل وحتى لسلسلة من المعارك إلا ان هناك ، من الناحية الأخرى ، القليل جداً فقط من الدراسات والتفهم الجيدين للأنماط التي شكلتها تلك المعارك ، وكذلك للأنماط والمفاهيم التي كانت المعارك جزءً منها ، ان المعارك هي الأدوات الفنية للحرب وستراتيجيتها ، أي انها ، الحرب والستراتيجية ، في حالة العمل بالدرجة نفسها والشكل الذي يمكن فيه اعتبار انتاج السيارات وتسويقها كناتج فني لمنظومة اقتصادية في التطبيق والعمل ، وما أرفضه بشدة هنا هو هذا التجاهل واللا مبالاة التامين في دراسة وتفهم المنظومات الستراتيجية ، ما طبق منه فعلا أو ما كان يحتمل تطبيقه . إذن فإن ما يجب ان يصبح علما اجتماعيا متكاملا وقائما بذاته هو الحرب وليست المعارك ، الستراتيجية وليس التعبئة أو الأساليب الفنية .

يمكن تلخيص أحد أهداف هذا الكتاب بتجربة واثبات ان دراسة الحرب شيء ممكن وكذلك الأمر بالبحث حول الحرب وفيها من الناحيتين المبدئية (النظرية) والعملية دون أي تحليل أو شرح مفصلين لمعركة ما أو حساب عدد القنابل أو الاطلاقات التي أطلقت أو تعقيب سير الفرقة (س) على خريطة بمقياس كبير لأن المهم في النهاية هو دراسة الشيء بكامله أي دراسة الحرب كلياً أما جزيئات الحرب أو التفاصيل الصغيرة والكثيرة للستراتيجية أو حتى التفاصيل التعبوية فهي معين لا ينضب ولا نهاية لها

ـ لأدب الحـرب وذكرياتها ـ وقد علمتنا التجارب المريرة في العلوم الطبيعية والاجتماعية اننا لن نستطيع الوصول الى مفهوم كامل وواسع لها ما لم تنتظم أجزاؤها الصغيرة في بناء واحد بطريقة ما واضحة ودقيقة . وكل ما يمكننا فعله هو الا نظل سجناء للتفاصيل الفجة والتي لا نهاية لها ، وقد يكون أي «مفهوم» ، أما خاطئاً أو مغلوطاً ومع ذلك فمن الضروري أن تتم صياغته بشكل محدد . وهكذا فان هدف هذه المناقشة هو ان تكون عامة وذات مفاهيم وان تتحمل بالتالي كل مخاطر التعـرض وسبر غـور آفاق منـطقة مجهولة .

ثانياً : النقطة الثانية الواجب ايضاحها هي : انه لم تعد هناك أية أسرار حول الستـراتيجية بحد ذاتها ، ولعل الفكرة الغامضة وغير المفهومة التي استمرت طويلا دون أي مبرر معقول لها والتي تقول ان الستـراتيجية من الأسرار المغلقة التي لا يجوز اباحتها لغير المعنيين بها وعلى أضيق نطاق ، وقد تكون هذه الفكرة هي أحد أسبـاب الاهمال الشديد للستـراتيجية بوصفها نشاطاً أو انجازاً فكريين كباقي ميادين المعرفة الاجتمـاعية . وهـذا لا يعني طبعاً أن نسمـح لأعدائنـا بالاطلاع عـلى ما نهيء من ستراتيجيات وخطط لمجابهة هذا الموقف أو ذاك ، أو حتى بالاطلاع على ما نسعى إليه ، أو على أية نوايا وتوجهات . بل ان ذلك يبدو أمراً بالغ السخف ولا يمكن حتى مجرد التفكير فيه ولكن ، من الناحية الاخرى ، فما من سبب ومهما كان بقادر على أن يؤكد لنا ضرورة تجنب الخوض والبحث في أنماط التفكير التي تؤثر بوعي أو غالباً بدون وعي في الفكـر العسـكري كمـا لو انها طارئـة عليه ولا تنسجم مـع أي من ميادين التفكـير الانساني . وعلى العكس من ذلك تماماً فإن ذلك النوع من (الشراكة) الفكرية الوثيقة يمكن أن يؤدي بالنتيجة الى نوع من السِفاح الفكري الذي سينتج بدوره ستراتيجيات عقيمة وعديمة القدرة . فالعلاقات والاعجاب المتبادل وحتى الزيجات التي تقـوم بين المجموعات والطبقات السكانية التي تعيش على شكل زمر أو جماعات صغيرة معزولة ومتقاربة المستوى حتى وإن كانت زيجات أو علاقات سعيدة وموفقة ، إلّا انها ستؤدي بالضرورة إلى ظهور أجيال من الشباب الذين يعوزهم النشاط الخلاق والقدرات العالية (ومثل ذلك ينتج عن زواج الأقارب لعدة أجيال متتاليـة) ، لذا ينبغي أن لا ينظر الى

الأنماط الأساس للفكر الستراتيجي بشيء من السرية والغموض ، فكلما ازداد عدد الأشخاص الذين يعرفون ويتفهمون أنماط التفكير تلك ، كلما ازدادت متانة الديمقراطيات الغربية ورجاحتها وصحتها في صياغة القرارات الستراتيجية الضرورية ، وعلى سبيل المثال فإن رجل البرلمان الذي يدلي بصوته مع تخصيصات الميزانية العسكرية أو عليها انما يقوم ، وبالمعنى الدقيق والحرفي للكلمة ، باتخاذ قرار ستراتيجي في غاية الأهمية ولا يبدو لي أن في رجل البرلمان ذاك حاجة الى معرفة الكثير من «الأسرار» أو الخطط السوقية التي أعدتها الدوائر المختصة في وزارة الدفاع قبل اتخاذ القرار الذي يراه - هو في الأقل - صائباً أو مناسباً ويبدو لي أن ذلك القول المأثور والمحبب لدى الكثيرين في أن .... « الحرب أكثر أهمية وأخطر من أن تترك للجنرالات وحدهم .. » قد حجب الكثير من حقائق الموقف (الوضع) في عدم وجود أجزاء أو جوانب في الستراتيجية مما يمكن أو يصح اعتبارها بعيدة أو خارج نطاق الاهتمام العام بعد ، وكل ما نحتاجه أو كل ما هو مطلوب منا يتمثل في تظافر الجهود ودمج المزايا والقدرات والأساليب لدراسة التفاصيل والمعطيات التي بين أيدينا .

ثالثاً : والنقطة الثالثة المطلوب ايضاحها قبل الاسترسال بعيداً هي أنني لا أدعي ان الستراتيجية هي علم قائم بذاته أو انها يمكن أن تكون كذلك ، أي علم يتساوى مع العلوم الطبيعية أو الاجتماعية الاخرى ولكنها - كما أرى - ينبغي أن تكون اختصاصاً فكرياً منتظماً على مستوى رفيع كما أرى ان على الستراتيجي أن يهيء نفسه لاستخدام ومعالجة « الفكرة Idea » بدرجة من الوضوح والدقة والتصور الشامل كي تكون معالجاته للحقائق الطبيعية ولأدوات الحرب معالجة فوق المستوى السطحي والمبتذل للأناس العاديين . وهكذا فحين لا تعتبر الستراتيجية بذاتها علماً فإن الأحكام الستراتيجية يمكن أن تكون علمية الى الحد الذي تصبح فيه عقلانية ومنتظمة وموضوعية وشاملة ومميزة ومتبصرة والى غير ذلك من الصفات والمزايا الاخرى التي يمكن أن تملأ حقيبة بكاملها . ولكن لكل من هذه الصفات والمزايا معنىً هادفاً بلا ريب وهي في الأقل ضرورية بشكل من الأشكال لذلك النموذج الذي نسعى إليه والذي سيدعوه أحدهم يوماً ما بـ « الستراتيجي الكامل » .

الفصـل الثـاني

طرق دراسة الستراتيجية

هناك في الأغلب أنواع متعددة من الستراتيجية كما ان لها من التعاريف المتنوعة والمختلفة ما يفوق عما نعهده عادة في ميادين اخرى كالاقتصاد والسياسة . إذ ان الستراتيجية (السَوق) كلمة فضفاضة وضبابية المعنى تقريباً ، وابتداء ولتجنب أي غموض أو لبس ولايجاد نقطة ارتكاز وانطلاق لهذه الدراسة أود ان أضع بين يدي القارىء التعريف الذي أفضله لها وهي انها :- « خطة عمل صممت للوصول الى نتيجة ما مع منظومة الوسائل لانجازها ... » ويلاحظ ان لهذا التعريف سمتين بارزتين ولهما صلة وثيقة بموضوعها ، وهاتان السمتان هما :

الأُولى : انها تعريف لا يتحدد بموقف حربي أو بتطبيق عسكري معين واعتقد ان هذا الشرط ضروري لمفهوم الستراتيجية بوصفها أحد فروع المعرفة الفكرية ، وعلى الرغم من ذلك فقد تعمدت تضييق ميدان البحث كما حددت تعليقاتي في الصفحات التالية - مع بعض الاستثناءات - على مسائل الحرب والستراتيجية العسكرية .

والسمة البارزة الثانية : في التعريف الذي اخترته قبل قليل تمكن في افتراضه وجود انقسام فكري مبعثه ان كلاً من الهدف ومنظومة الوسائل المتعمدة لتحقيقه يجب أن يكونا ضمن تفكير الستراتيجي ، وأرى ان ذلك أمر ضروري كضرورة المؤهلات (المواصفات) المسبقة في تكوين مفهوم أوسع من ذاك الذي يقتصر على التطبيقات العسكرية فقط ويمكن ان نسلم وبسهولة بإمكان اعداد خطة للقيام بعمل ما ، مع مجرد فكرة أو تصور غامضين عما يمكن أن تؤول إليه النتائج .

لقد فعل الكثير من الرجال ذلك غالباً وبكثرة تمنعنا من الاعتقاد بعكس ذلك - ولكني سأصر هنا على انه من الصعب حقاً تقويم صلاحية أية ستراتيجية دون تقويم واضح نوعاً ما لهدفها .

ولتوضيح ما يعنيه ذلك سأفترض أن الخطأ الأساس في الحرب الأخيرة (العالمية الثانية) في أوربا يكمن في أننا قلنا بكفاءة عالية بحق ، إلا أن ما حققناه نتيجة لذلك قد تحول فيما بعد الى نهاية ستراتيجية لا تتناسب وما دفعناه من أجلها ، نهاية غائمة ومتناقضة وبالتالي لا تستحق حتى أن تسمى بنهاية ستراتيجية لها شيء من الوجود الحقيقي . إن السلام بذاته أو لذاته ليس بالضرورة هو الهدف النهائي المناسب

ولا اعتقد ان مثل هذا المنطق يمكن أن يوصف بالانتهازية أو (الميكافيلية) .

إلا أن اصراري على ضرورة أخذ كل من الهدف وخطة (أو خطط) الوصول إليه بنظر الاعتبار عند تقويم أية ستراتيجية يستلزم مني العودة خطوتين الى الوراء والتأكيد على ان هذا التقويم عملية ذات شقين ولابد من اخضاعهما معاً للتحليل وسيجد المحلل في العديد من المواقف التي اخضعت للتحليل ، ان هذين الشقين مختلفان عن بعضيهما تماماً .

سيسمح لنا تقسيم الستراتيجية الى جزأين بالاستطراد للحظة والنظر الى كل منهما عن انفراد ، الأمر الذي يمكننا من ازالة أحد عناصر الارتباك منذ البداية . ويتعلق هذا بالتصانيف التي نواجهها غالباً عند وصف الستراتيجية كونها «جيدة» أو «رديئة» من الناحية الاخلاقية . وعلينا أن ندرك في مستهل هذه المناقشة ان الستراتيجية بحد ذاتها ليست لها أية مزايا اخلاقية ، فهي أساساً ليست جيدة أو رديئة ولا خيرة أو شريرة بل انها ودائماً ذات قيمة معيارية أو ذات علاقة وثيقة بالقيم ، ولا يمكن قياس اخلاقية الستراتيجية بمقاييس القيم والأحكام الحضارية التي يلجأ اليها النقاد عادة .

وعلى كل حال فإن لهذه المقارنات ما بين الهدف ومنظومة الوسائل (التدابير) المستخدمة في صياغة الستراتيجية تأثيراً قوياً في الستراتيجية كلاً وشرعيتها ويعود ذلك لسببين في الأقل .

الأول : إذا كان هدف الستراتيجية سينقلب الى صفة اخلاقية مريبة في عين الستراتيجي وقد يصل هذا التردي حداً تتحول فيه الستراتيجية لتصبح تدميراً ذاتياً والتاريخ يزخر بالأمثلة التي تؤيد ذلك .

والثاني : ان اخلاقيات الستراتيجي ومن سيتولى تنفيذ تلك الستراتيجية وأخيراً اخلاقيات من يفترض بأنه سيكون المستفيد منها ، كلها تفرض تحديدا واضحاً وقوياً على الأهداف وعلى منظومة الوسائل المعدة للاستعمال .

إن تحديدات الأحكام الاخلاقية المفروضة ذاتياً (ووفقاً لأية مبادىء) تعمل وبقوة على تحديد الخيارات المتاحة للستراتيجيين والى الحد الذي تضيق فيه أحياناً حرية

التحليل الكلي للاحتمالات . وقد يساعد ادراك مثل هذا التنوع في التحديد الذاتي ، على تفسير بعض التحركات للشيوعيين ، لأن ذلك يشكل قاعدة وأساساً واضحين لتفهم الذعر الذي دفع بالعديد من القادة السياسيين والبرلمانيين في الولايات المتحدة للمطالبة علانية أو حتى للتفكير في الأقل باستخدام الأسلحة النووية في مواجهة بعض من تلك التحركات النشطة ، التي أوشكت ان تهدد الغرب (في فيتنام مثلاً)[1] . ورغم ان الستراتيجية نفسها قد تكون حيادية ـ بدرجة ما ـ وكما هو الحال بالنسبة للعلوم الطبيعية أو الاجتماعية والسايكولوجية الاخرى إلا ان المناخ الاخلاقي الذي تعمل فيه قد يحدد وبشدة مدى تقبل الستراتيجيات في أي موقف بعينه[2] .

ها نحن الآن إذن وبعد هذا التصور العملي لتأمين نقطة الانطلاق والتي اصطدمت بادىء ذي بدء بالعقبة الطارئة التي جاءت في وقتها المناسب والمتمثلة بالحاجز الاخلاقي للستراتيجية نجد أنفسنا أمام المهمة الكبرى إلا وهي كيف يستطيع المرء أن يتناول معضلة البحث ودراسة الستراتيجية (في الفراغ) تجريدياً ؟ من أين يستطيع أو يجب أن يبدأ ؟ وكيف يمكن تشريح الحرب من أجل عزل ودراسة ستراتيجيتها والأرضية الفكرية التي بنيت عليها ؟ وبعد ذلك كيف يبني المرء ستراتيجية أفضل عندما يحين الوقت ؟ .

لقد اتبعت مسالك عديدة بهذا الصدد ولا بد من التطرق الى البعض منها لمناقشتها ولتحديد موقفنا منها .

تعتبر الطريقة الكلاسيكية (التقليدية) الاسلوب المحبب الذي طالما استخدمه

---

(١) كانت تجربة فيتنام التي اعتمدت الخطط التي وضعها الستراتيجي الفيتنامي الكبير (نجوين جياب) تقلق العالم الغربي ، لانها اعطت نتائجها في معركة «ديان بيان فو» وتحريرها من المحتلين الفرنسيين ثم تحرير «سايغون» وبذلك مني الاستعماران الفرنسي والامريكي بهزيمة في فيتنام ، وازاء (الاهداف) و (منظومة الوسائل) التي وضعها الستراتيجيون الغربيون كان «جياب» يضع ستراتيجيته الخاصة بتحرير فيتنام .. اعتمادا على منظومة وسائله المعدة ، مع اختلاف الاخلاقيتين : اخلاقية الغرب وبالتحديد امريكا التي اوشكت ان تستخدم الأسلحة النووية ضد فيتنام .. واخلاقية الشعب الفيتنامي الذي يقاتل من اجل قضية عادلة هي تحرير وطنه من ربقة الاستعمار والغزو الاجنبي .

ـ الناشر ـ

(٢) يحتوي كتاب هنري ايكلز «المفهوم العسكري والفلسفة» ص ٣٢ـ٣٤ (مطبعة روتجرز عام ١٩٦٥) على مقترب مختلف نوعاً ما لمعضلة العوامل الاخلاقية في الستراتيجية .

الشعراء والمؤرخون ، إذ يستطرد كل منهم ليروي لنا قصته باسلوبه الخاص عن مأساة الحرب وتفاصيلها ، فصور لنا أحدهم الحرب بشكل دقيق للغاية بينما أمدنا الآخر بالحقائق الغنية عنها وكلتا الروايتين تشكلان مقدمة لا بد منها في دراسة الحرب . إلا أن تحليل الحرب يجب أن يتخطى مثل هذه المقدمات الروائية ولربما كان عليه الاتجاه في طريق مغاير تماماً .

عندما ننظر حولنا في الميادين المتاحة لدراسة الستراتيجية فستواجهنا وفي وقت مبكر مصطلحات وتصانيف مفاهيمية طالما استخدمت لوصف صفحات الحرب وصفحات الستراتيجية التي يماثلها حالياً في المصطلحات العسكرية (ولدينا الكلمات الملائمة لحسن الحظ) «كالدفاع» والذي يتدرج أحياناً الى « الدفاع ـ التعرضي » و «التعرض» ، كما ان هناك تفرعات أقل مرتبة من سابقاتها والتي تستخدم لوصف أنواع من العمليات الأقل اتساعاً مثل « التعويق Delaying » و « التثبيت Holding» و «السبر Probing » وما شابه ذلك ، ولكل من هذه المصطلحات معان واضحة ، ولو انها كلما أصبحت أكثر دقة كلما غدت وفي الوقت نفسه أكثر تقنية وتحديداً وبالتالي أقل فائدة لما نحتاجه في قائمتنا الجديدة هنا .

هناك الكثير من الكتابات من هذا النوع عن الحرب والستراتيجية وقد كان البعض منها جيداً للغاية ومفيداً وقد تعود كلاوزفيتج في مناقشته للحرب اتباع هذه الطريقة من بين طرق وصيغ اخرى في ولوجه موضوع الحرب وقد حقق في ذلك تفوقاً لم يبزه فيه أحد إلا أن كلاوزفيتج يعد من الناحية العلمية فريداً في قدرته هذه . كما طبق كتاب آخرون هذه الطريقة وبأشكال مختلفة وعلى أنواع عديدة من التحليل الاخباري وقد فعلوا ذلك بكفاءة يحسدون عليها ، وعلى سبيل المثال فقد كانت تقارير الحرب التي أعدتها قيادات الخدمات المسلحة الثلاث : (الجيش والقوتان الجوية والبحرية) في الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها ، تعد نماذج رائعة يحتذى بها في استخدام هذا التحليل لصفحات الحرب لانجاز سجل دوري للعمليات الحربية رغم اضطراب صفحات الحرب وتداخلها .

ومن الواضح ان تلك السجلات (التقارير الدورية) لسير العمليات كانت مؤثرة حقاً

تركت أثراً عميقاً في الأجيال اللاحقة وكل في مجال حرفته .

ولا يبدو على كل حال ان هذه الطريقة في تناول المعضلة يمكن أن تمدنا بالكثير من الأمل لا في تحليل ثاقب ولا في تطبيق واقعي في عملية التخطيط الستراتيجي ، كما لم يكن كلاوزفيتج شاملاً أو حتى مبدئياً على نحو كاف في تلك الأقسام من كتاباته والتي استخدم فيها هذا النوع من التحليل لأنه لم يصل الى لب المعضلة - أي صياغة نمط من التفكير الستراتيجي يمكن ان تتوالد عنه وتنمو فيه كذلك أعمال الحرب نفسها ومساراتها . فقد انغمس كلاوزفيتج في قضية اخرى وان كانت في غاية الأهمية أيضاً ، وهي ادارة الحملات وقدم أو كتب تعليقات حاسمة في رامور مثل التأثير النفسي للهجوم والدفاع ، ومع ان مصطلحات كهذه ما زال لها وحتى في عصرنا الحاضر الصلاحية نفسها ، والدلالات التي كانت لها في أيامه ، إلا انها تدور في جملتها حول المحيط الخارجي للمعضلة التي نبحث فيها الآن ، وعموماً فإن معظم تعليقاته التي اعتمد فيها على اسلوب الاستنتاجات لم يعد لها الكثير من طاقة التحول المادي التي كانت لها في عصره .

أما فيما يتعلق بالميل الظاهر في هذه الأيام لاستخدام طريقة التصانيف هذه كأسلوب للتخطيط السوقي فإني أرى ان ذلك يمثل خطأً فادحاً لأن تقارير الحرب ودورياتها التي أعدها قادة ورؤساء الخدمات المسلحة الامريكية الثلاث قد استندت الى حقيقة تأريخية عدا عن ان استخدام تلك التقارير لمصطلحات مثل «الدفاع» أو «التعرض» إنما كان لأغراض وصفية وكوسيلة مقنعة وقابلة للاستعمال لتقديم الحرب وستراتيجيتها في سياق مفهوم ومقبول عاطفياً .

هناك اعتراضان على ذلك :

الأول : هو ان فكرة « التعرض Offense » التي قد تضفي شيئاً عاطفياً جذاباً لفكرة « الهجوم Attacking » أمر ليس له هدف واضح بل انها والى ذلك الحد في الأقل مفهوم مشوش .

الثاني : هو كونها أصبحت تاريخاً يشكل بحد ذاته نقطة ضعف خطيرة عندما يراد تطبيق هذا الاسلوب في التخطيط كما أن هناك مغالطة منطقية كبيرة في هذه الطريقة لأنها - أي هذه الطريقة - لا يمكن بالضرورة تطبيقها إلا بعد وقوع الحدث الذي تنطلق

ـ أو تنجم ـ عنه ، أي انها ليست أكثر من مجرد استعادة وتذكر لاحداث مضت ولابد إذن من توفر الحقائق أولاً قبل إمكان تطبيق هذه الطريقة وعند عدم تيسر تلك الحقائق فليس أمامنا سوى افتراضها وبالطريقة التي نفترض فيها وقوع هذا الموقف أو ذاك قبل المضي في التفكير في ستراتيجية تستند الى تصنيفات وصفية . وهكذا يجد الفكر العسكري المقيد بمفهوم « دفاع ـ تعرض Defense - Offense » نفسه غارقاً في العمل المضني في استنباط أحداث حرب لم تقع ـ بل أنها حرب مفترضة ـ بغض النظر عما اذا كان يعيها بكاملها أم لا ، وانني إذ أحتفظ والى وقت آخر بالتعليقات الأكثر تفصيلاً بخصوص هذا السؤال الشائك حول الفرضيات ، اعتقد ان الاعتراضين آنفي الذكر أعلاه على هذه الطريقة في معالجة المعضلة كافيان لرفضها بشكلها الراهن هذا ، كدليل ميئوس منه للوصول الى تحليل افضل لانماط التفكير الستراتيجية .

الطريقة الأُخرى لمناقشة الحرب من الناحية النظرية (التجريدية) هي من خلال عزل عدد معين من «مبادىء الحرب» ، وقد كانت هذه الوسيلة التحليلية في الماضي كما في الحاضر هي الطريقة المفضلة من قبل العسكريين المحترفين أنفسهم ومن قبل الكتاب الآخرين على حد سواء عند خوضهم في مناقشات عامة حول «المهنة العسكرية» .

ستجد بين يديك من ثمانية مبادىء الى عشرة بل وحتى الى ثمانية عشر مبدأ من «مبادىء الحرب» هذه وفقاً لما سيسوقه الحظ إليك من القوائم التي أعدت هنا وهناك عنها ، وتحتوي معظم هاتيك القوائم على عناوين مثل «مبدأ توخي الهدف» و «التعرض» و «التحشد و «الأمن» وما الى ذلك من مبادىء .

لقد تطورت قائمة أسماء المبادىء هذه مع تطور خبرات الرجال وزيادة حكمتهم على امتداد تاريخ الحرب ، ولكن واكبت ذلك أحياناً سمة ملفتة للنظر تتمثل بـ«الزمانية» او التوقيت الزماني المطلوب في تكوين ماهيات الحكمة هذه ، كتلك المبادىء التي ظهرت للوجود قبيل بضع سنوات . ويلاحظ انه حتى الى جيلين ماضيين كان هناك قبول عام لا جدال حوله ما بين دعاة ومؤيدي هذه المبادىء مفاده أن « مبدأ التعاون » يعد أحد أهم مبادىء الحرب تلك بل وعده بعضهم شرطا لازما للنجاح في الحرب وقد يكون الأمر كذلك على وجه التأكيد حقا ، إلاّ أنه ومن خلال المناقشات المريرة التي دارت حول أول

تشريع قانوني لانشاء وزارة الدفاع الأمريكية تولت احدى الخدمات المسلحة الثلاث اعادة دراسة هذا الموضوع برمته فاستبعدت دونما ضجة تذكر «مبدأ التعاون» هذا من نشراتها الرسمية واستبدلته بـ«مبدأ وحدة القيادة»[٣] .

المبادىء ـ وكما هو معروف ـ حقائق ثابتة وخالدة (دائمية) ، واضحة وبسيطة للغاية ولا تثير حولها أية شكوك ، ولنأخذ على سبيل المثال «مبدأ التحشد» ونقول ان القوات الحمراء قد تحشدت في النقطة (٣٤) وضربت القوات البيضاء في النقطة (٧٢) ، وكذلك فأن القوات السوداء قد تحشدت ووجهت ضربة قاصمة للقوات الخضراء التي كانت في النقطة (٨٦) ... وهكذا نستطيع أن نقول عندها ان «مبدأ التحشد» بذاته مقوم اساس للنصر . ومن ذلك نصل الى الحكمة المستقاة عبر العصور وخلاصتها : أن «مبدأ التحشد» حقيقة ثابتة غير قابلة للتغيير وهذا هو ما نعني به بـ«الحضور» أو التجسد الحي الذي يحس به المرء عادة للمبادىء . إلّا أن كل ذلك وفي الوقت نفسه ليس أكثر من ترهات وسخافات منطقية براقة وخادعة .

لقد ساد هذا الغموض وفرض نفسه في جميع الشروح والايضاحات التي قدمتها لنا الدراسات والمقالات والمحاضرات حول مبادىء الحرب مما يعني ضرورة توفر بعض المؤهلات والقدرات الخارقة لدى القائد الذي يعمل أو يتعامل وفقاً لمبادىء الحرب ليتسنى له بذلك وبما يمتلكه من حكمة وحنكة اتخاذ القرار : متى وكيف ؟ وأين ؟ عليه التمسك بمبادىء الحرب تلك أو خرقها أو تحويرها أو تجاهلها تاركاً العنان لقواه الذاتية لأن تقرر ما يجب عليه عمله . وفق كل ذلك فإنني لا أعرف حتى الآن أن أحداً من الناس قد كلف نفسه وبصورة جادّة مناقشة أو ايضاح كيفية استخدام مبادىء الحرب أو حتى الاستعانة بها في صياغة الستراتيجية أو بنائها .

اعتقد أن مبادىء الحرب هذه ليست في النهاية سوى محاولة لترشيد مهم عام للحرب وتنظيمه وتبويبه ، ولست متأكدا اطلاقا ما إذا كان من الضروري أو حتى من الممكن تدريس وتلقين هذا «الفهم العام» إلا أنني ومن الناحية الاخرى على ثقة تامة من ان موضوع تفهم الستراتيجية وتحليلها ليس من الأمور التي يمكن معالجتها بأي نوع

---

(٣) Principle of Unity of Command.

من الجداول أو القواعد الأساس (Elemental) السهلة المعروفة بمبادىء الحـرب .

توصيات

هناك مقترب آخر أكثر تعقيدا في دراسة الستراتيجية من المقتـرب الأول وقد استعمل هذا على نطاق واسع في الولايات المتحدة وبريطانيا ويتمثـل في محاولة بـذل الجهود الكفيلة باعداد وتهيئة استراتيجيين واعدين تم اختيارهم بعناية وذلك بتوسيع مدروس لآفاقهم الفكرية وفق منهج أعد خصيصـاً لهذا الغـرض ، ويتضمن دراسة المسائل الاجتماعية الوثيقة الصلة بالعمل العسـكري في نطاقه الواسـع ، كما يشتمل هذا الاعـداد على دراسـات موسعـة في ميادين العـوامل السيـاسية التي تمس السـوق العسكري ، والعوامل الاقتصادية والاجتماعية وأية ميادين أو عوامل اخرى تؤثر في السوق العسـكري . ومثل هذا النوع من الدراسة سيسهم دون شك في تطوير نوعية الستـراتيجيات التي قد يستنبطها أولئك الرجال ، إلا أن مما يؤسف له هو أن عملية توسيع أفق وقدرات السـتراتيجي العسـكري في البيئة التي يعمل فيها ، وتركيز وتكامل البحث في العوامل الاجتماعية في عقله لا يكفيان بحد ذاتهمـا لتوليـد أنماط التفكير السـتراتيجي بشكل مباشر كما أن هذه العملية ليست بالاداة الفكرية المناسبة للوصول الى تحليل أفضل لتلك الأنماط الفكرية المتوخاة .

وفضلاً على ما ذكرنا في أعلاه يحتمل وجود العديد من المقتربات والطرق الأخرى - والتي قد تصل الى اثنتي عشرة طريقة - في تناول المعضلة والغوص فيها . غير أني لم أتطرق هنا إلا الى اثنتين منها وسوف أتناولهما بالبحث في الصفحات التالية :

الأولى : وهي نوع من التحليل يتم باستقراء النمط العملياتي (Operational) .

والثانية : تحليـل القواعـد الفكريـة (المفاهيميـة Conceptional) أو النظريـ (Theoretical) .

ورغم انهما تحليلان متداخلان إلا أن المقترب الثاني (النظري) هو الأكثر شمولية ومبدئية وبالتالي يجب أن يكون الميدان الأكثر حضورا وجدوى للدراسة .

ولدى تفحص هذين المقتربين وأخذهما بنظر الاعتبار ، الواحد تلو الآخر ، ينبغي أن ندرك انهما ليسا أنماطاً فكرية جاهزة قيد الاستعمال العام للأغراض التحليلية الآن بل أنهما قابلان للتطوير - بل ويجب - تطويرهما واستخدامهما بشكل مفيد من قبـل المفكرين العسـكريين في العمل الحقيقي والفعلي وكذلك من قبل السـتراتيجيين النظريين في الدراسة والتحليل التاريخيين .

الفصـل الثـالث

في استراتيجيتي التراكم والتعاقب



في مقالة لي نشرت منذ سنوات في دوريات المعهد البحري الامريكي[1] ، كنت قد اقترحت فيها طريقة جديدة في التحليل اعتمد فيها علـى استعراض نمـطين جديـدين للعمليات الستراتيجية ، ولم يكن أحد ما قد عُني بهذين النمطين من قبل كما لم تثر مقالتي تلك أي اهتمام ذي قيمة ورقدت منذ ذلك الحين مع الملفات القـديمة . ولكني ما زلت أؤمن بأن لها أو فيها شيئاً من الأمل والجدوى فيما يخص موضوع هذا الكتاب لذا سأعيد عرضها هنا بشيء من الايجاز .

عند تناول نوعي ستراتيجيات العمليات ، المختلفتين هاتين ، لابد من استخدام بعض المصطلحات الوصفية الجديدة نوعاً ما وغير المألوفة بعد في المناقشات السوقية (يبدو لي أن معضلة اختيار الكلمات المناسبة قد أطلت برأسها من جديد ، ولكن في وقت مبكر في هذا الفصل) ، والمصطلحين الجديدين اللذين اخترتهمـا هما : ستـراتيجيتا « التعاقب Sequential » و « التراكم Cumulative » . وأول من اقترح هذا النوع من التحليل هو الدكتور هيربرت روزنسكي في مناقشة جرت في ربيع عام ١٩٥١ إلا أنـه استخدم - وقتها - تعبيرين مختلفين الى حد ما ، فقد أطلق على الستراتيجيتين الآنفتي الذكر مصطلحي « التوجيهDirective » و «التراكم» ، ولعل تطويري لفكرته الأساس قد يكون هو عين ما قصد إليه نفسه أو أنه كان سيصل الى ما وصلت اليه نفسه لو تابع أبحاثه إلا أن ما يؤسف له أن روزنسكي قد مات قبل أن يتوفر له الوقت الكافي لاستكمال وتطوير بحوثه وتفرغه الكلي لهذا الموضوع المثير والبالغ الأهمية .

تعتبـر الحـرب سلسلة متتابعـة من الخطوات والأعمـال المنفصلة ، تنبثق كل سلسلة من الأعمال أو الخطوات فيها وتنمو بشكل طبيعي مما سبقها ومعتمدة عليها في الوقت نفسه . ومن النمط العام والكلي لجميع سلاسل الخطوات والأعمال تلك يتشكل ، تسلسلياً ، السياق العام والمسار الكلي للحرب . وإذا اتفق واتخـذ أي من سلاسـل الأعمال والخطوات تلك وفي أي من مراحل الحـرب منحى آخر مختلفاً فلا بد من أن يتخذ مجموع السياق العام عندها هو الآخر نمطاً مختلفاً ، أي أنه سينقطع عن مجراه السابق وسيتبدل ، وكما حدث في الحـرب العالمية الثانية في المثال التالي :

(١) المجلد (٧٨) - العدد الرابع - نيسان ١٩٥٠ .

يمكن اعتبار وتحليل الاندفاعين الكبيرين عبر المحيط الهادي في تلك الحـرب ـ اي حملة مكارثي في جنوب غرب المحيط الهادي والاندفاع الآخر وسط المحيط نفسه من جزر هاواي نحو الساحل الصيني ـ كستراتيجيات تعاقبية ، كما عليّ تحليل الاندفاع الألماني في روسيا بالطريقة نفسها . ويـلاحظ ان كـلاً منهما تـألف من سلسلة من الخطوات المنفصلة ، ولقد كان بوسع الستراتيجي أن يرى كل خطوة منها على انفراد وبوضوح حتى قبل وقت طويل من وقوعها كما كان عليّ تقويم كل منها وبدقة في ضوء نتائجها المتوقعة وربما نتائجها الحقيقية ـ لا المتوقعة فقط ـ وبالمقابل كانت ستقود الى اتخاذ القرار للخطوة التالية والى الوضع التالي الواجب اتخاذه ، أو الى العمل أو الخطوة التالية (وضمن السياق نفسه) التي ينبغي التهيؤ والتخطيط لها وهـذا هـو مـا نعنيه بالستراتيجية التعاقبية .

إلا أن هنـاك طريقة اخـرى لمواصلة الحـرب ، فهنـاك نوع آخـر مختلف من الحـرب ، نوع يتشكل النمط الكلي فيه من مجموعة ـ مجموعات ـ من الأعمال الصغيرة والأقل شأناً لو أخذت كل منها بمفردها ، ولا تتعاقب هذه الأعمال بشكل متداخل أو معتمدة على بعضها البعض . وكل عمل من تلك الأعمال المنفردة ليس أكثر من مجرد رقم في قائمة أو احصائية طويلة أو مجرد عامل اضافة أو نقصان في الوصول الى النتيجة النهائية (الهدف) .

ويمكن أن تكون الحـرب النفسية وكذلك الاقتصادية مثالين على هذا النوع الثاني من الستراتيجية ، إذ لا يعتمد أي عمل في الحـربين الاقتصادية والنفسية على العمل السابق له والأمر المهم في النهاية هو التأثير «التراكمي» ـ الجمعي ـ لكل تلك الأعمال المنفردة . وكي نقدم مثالاً حربياً لستراتيجية التراكم هذه نستطيع الاستشهاد بحملة الغواصات في المحيطين الأطلسي والهادي في الحـرب العالمية الثانية . فـالحـرب التي شنتها الغواصات الأمريكية لتدمير حمولات الشحن البحري المعادية في المحيط الهادي لا تتشابه أبداً وأية ستراتيجية تعاقبية ، ففي حرب الحمولة هذه لم يكن ممكناً التنبؤ في اي وقت ولا بأية درجة من الدقة بنتائج أي من تلك الأعمال التي قامت بها الغواصات كلا على انفراد وفي مناطق متباعدة وأوقات مختلفة ، وإن كانت كلها تنصب في المجرى

العام لمسار الحـرب .

يلاحظ ان اية حرب كحرب الحمولة هذه تعد تكديساً دؤوباً لانتصارات فردية وعشوائية تقريباً - أي لا رابط محكماً بينها - ويشكل عمل كل غواصة منها عنصراً مستقلاً في التأثير العام «المتراكم» لحملة كلا .

وهكذا بدا وكأننا كنا ندير ما بين عامي (٤١-١٩٤٥) ، حربين منفصلتـين في المحيط الهندي ضد اليابان تتمثل الأولى في حملات اديرت ونفـذت وفقاً لستـراتيجية تعاقبية في اندفاعنا عبر المحيط الهادي ونحـو سواحـل آسيا ومن ثم نحـو سواحـل الامبراطورية اليابانية ، والثانية تتمثل في اننا كنا نتابع في الوقت نفسه وبوضوح تام ، وبمعزل عن النوع الآخر ستراتيجيـة تراكميـة تهدف أسـاساً الى تـدمير الاقتصـاد الياباني ، وقد سارت تلكما الســتراتيجيتان معاً وفي آن واحد ولكن بشكل مستقل من حيث الأساس وفي نشاطاتهما اليومية .

لقد كنا قادرين وبشيء من الدقة على التنبؤ سلفاً بنتائج ستراتيجية التعاقب في حين لم نكن قادرين أو في الأقل يبدو اننا لم نستفد كلياً من قدرتنا . ومهما كان حجمها - على التنبؤ بالتأثير المركب للستراتيجية التراكمية عندما تطبق سوية . ويترادف مع الســتراتيجية التعاقبية التي تدعم وتعزز الســتراتيجية التراكمية . لقد أوصلنا اليابان في وقت ما من عام ١٩٤٤ الى وضع لم يكن أمامها فيه إلا أحد خيارين ، فاما الاستسلام أو الدمار التام . ويعود الفضل في ذلك والى درجة كبيرة للضغط المتواصل لستراتيجية التراكم ، ولم نكن يومها قادرين - ولسنا حتى الآن كذلك - على أن نحدد وبوضوح متى حدث ذلك ولكنه حدث فعلاً إذ بدأت اليابان الحـرب وقدرتها على النقل البحري كانت بحدود ستة ملايين طن نجحت في زيادتها في السنوات الأولى للحرب الى (١٠) ملايين طن ، ولقد تم تدمير تسعة أعشار هذه الحمولة في أواخر عام ١٩٤٤ ، إلاّ ان اليابان كانت حينذاك قد تخطت نقطة اللا عودة ويبدو اننا أنفسنا لم نكن نعرف ذلك وقتها ، بل لعل اليابان لم تكن تعرف ذلك أيضا .

ان النقطة التي تستوجب الايضاح هنا هي : أن هناك في الواقع نوعين مختلفين من الســتراتيجية ، مما يمكن استخدامهما في الحـرب وهما :

(**الأولى**) :ستراتيجية تعاقبية تتألف في مجملها من سلسلة من الخطوات المتميزة والمنفصلة عن بعضها والتي تعتمد فيها كل خطوة على الأخرى التي سبقتها .

(**الثانية**) :ستراتيجية تراكمية تنجم عن تكديس وتراكم مجموعة أو مجموعات من الأعمال (الأجزاء) الدقيقة والأقل وضوحاً ، والتي تتراكم فوق بعضها البعض حتى تكتسب وفي نقطة ما - يصعب تحديدها - حجماً وكثافة كبيرتين يضفيان عليها الأهمية التي تستحقها . وهاتان الستراتيجيتان ليستا متنافرتين ولا غير قابلتين للاقتران معاً بل وعلى العكس من ذلك تماماً فانهما في التطبيق العملي تعتمدان على بعضهما البعض لا سيما في نتائجهما الستراتيجية .

لعلنا جميعاً نفهم أو يمكن أن نفهم بسهولة الستراتيجية التعاقبية إلا أن الأمر قد لا يكون بهذه البساطة بالنسبة لستراتيجية التراكم لأنها ظلت ولزمن طويل سمة ملازمة للحروب البحرية ، وربما للحروب الجوية كذلك . وليس بين أيدينا الآن أي تحليل معروف أو يعتمد عليه للتمييز ما بين الحروب التعاقبية والتراكمية في أي من الكتابات الستراتيجية ، كما لم يقدم لنا تأريخ الحرب ولو مثالاً واحداً عن حرب عملت (او استخدمت) فيها الستراتيجية التراكمية بمفردها الى النهاية وحتى تحقيق النصر التام ، وعلى سبيل المثال فقد واظب الفرنسيون ولأمد طويل على استثمار قوتهم البحرية[٢] فيما عرف بحروب التنافس التجاري (Curre de Course) إلا أنهم لم يواصلوا اياً من حملاتهم خلال تلك الحروب ولو مرة واحدة الى نهاية الشوط أو حتى تحقيق نصر حاسم ، وبفضل القوة البحرية وحدها .

كما حشد الألمان كل قواتهم البحرية مرتين في ستراتيجية تراكمية إلا أنهم رأوا الفشل بأعينهم في كلتا المحاولتين ولعل من المفيد كذلك تحليل كل من الجهدين الجويين الألماني ضد بريطانيا أيام الحرب العالمية الثانية فيما عرف آنذاك بمعركة بريطانيا أولاً والجهد الجوي للحلفاء ضد ألمانيا في الحرب نفسها في ضوء المفهوم الذي قدمناه للستراتيجية التراكمية .

---

(٢) راجع للمزيد عن حروب التنافس او الحروب التجارية وكذلك عن ظهور وتزايد دور القوات البحرية ، كتاب رواد الستراتيجية الحديثة الكتاب الرابع - الفصل السابع عشر - باشراف ادوارد ايدميرل وترجمة محمد عبدالفتاح - القاهرة .

المترجم

أما عندما استخدمت ستراتيجية التراكم كرديف لستراتيجية تعاقبية ووجهتا معاً نحو نقطة (أو نقاط) حاسمة في البنية الكلية للعدو فلدينا العديد من الأمثلة التي تثبت وتؤكد لنا ان القوة المجردة للستراتيجية التراكمية كانت حاسمة في نجاح أو فشل الستراتيجية الأخرى ، إلا أن التاريخ يزخر من الناحية الاخرى بأمثلة عديدة فشلت فيها ستراتيجية تعاقبية ضعيفة نسبياً عن تحقيق النصر بفضل القوة المجردة لستراتيجية تراكمية تعمل خلفها وتدعمها ، والأمثلة على ذلك عديدة ؛ فحملة واترلو مثلاً ، والحملة في البرتغال ، والحرب الأهلية الأمريكية وهي ثلاثة من الأمثلة التي ترد في الذهن ، والحرب العالمية الأولى مثال آخر أما في الحرب العالمية الثانية في كل من أوربا والمحيط الهادي فقد بدا وكأننا لم ندرك تماماً مدى قوة ستراتيجيتنا التراكمية وأهميتها وهي تعمل في اسناد الاندفاعات التعاقبية نحو الأهداف الحاسمة .

ان ادراك نوعي الاستراتيجية هذين (والمختلفين كلياً من حيث الأساس) وتفهمهما قد يفتح لنا ميداناً جديداً لممارسة المهارات الستراتيجية بل وقد يقاس نجاحنا الستراتيجي في المستقبل والى حد كبير بمهارتنا في الموازنة ما بين جهدينا التعاقبي والتراكمي لتحقيق أهدافنا بأفضل الطرق وأقل التكاليف . فإذا ما أحسنّا التحكم بعملية الستراتيجية التراكمية وقوة تأثيرها فعندها لن نسيطر فقط على عنصر مهم في ستراتيجيتنا ـ فرض علينا حتى الآن تركه للظروف ـ ولكنا سنكون قادرين أيضاً على أن نحدد وبشكل فاعل الظروف التي ستجد بعد انتهاء الحرب .

وتقودني المناقشة الى سوق مقترحين محددين وهما :

الأول : وجوب الاعتراف بوجود هذه الستراتيجيات التراكمية وقوتها وضرورة دمجها بأفضل طريقة ممكنة في أسس تفكيرنا السوقي .

الثاني : وهو ضرورة دراسة هذه الستراتيجيات بصورة أوفى وأشمل مما فعلناه حتى الآن وذلك لكي نتمكن من تحديد ما إذا كانت ـ أو يمكن أن تكون ـ الستراتيجيات التراكمية هذه حاسمة وفي مصلحتنا بشكل مجد فان كان الأمر كذلك توجب علينا عندها تحديد نقاط تطورها زمانياً ومكانياً والتي تصبح عندها ذات تأثير حاسم ومصيري في مسار الحرب كلاً وعندما نفعل ذلك سنتمكن من استخدامها على نحو أكثر كفاءة واقتصاداً مما كان عليه الأمر في السابق .

استنبطت هذه الصياغات والأمثلة بالدرجة الأساس من الحروب البحرية ومن ب الغواصات بشكل خاص ولكني أرى مع ذلك انه لو أمكن تطبيق هذه الأمثلة على أية مواقف في أيامنا هذه (والتي يتركز فيها الكثير من الاهتمام بالضرورة على الحروب الجوية) لأمكن الحصول على فوائد جمة من خلال تطبيق تلك الأمثلة ليس في حروب الغواصات فقط وانما في الحروب الجوية ايضاً بما فيها الطائرات والصواريخ . وبامكان المرء أن يتفهم انه لو توفر إمكان حقيقي وكافٍ في تطبيق واستخدام مفهوم الستراتيجيتين التعاقبية والتراكمية معاً وبتنسيق وثيق بينهما فإن ذلك قد يساعدنا على صياغة أحكام اكثر صلاحية ودقة للعلاقات المتداخلة (والمتقابلة) ما بين القوات البرية والجوية وما بين القوات البحرية والجوية وما بين القوات البرية والبحرية (وهي تعمل ضمن الأطر العامة للستراتيجيتين التعاقبية والتراكمية) واذا كانت الستراتيجية التراكمية ـ وكما اظهرت لنا ذلك الخبرات والتجارب السابقة ـ ليست حاسمة بذاتها أو بقوتها المجردة والى الحد الذي يعتمد عليه عندها يجب أن تتوجه الدراسات من أجل أن نعرف متى وكيف يمكن استخدام الستراتيجية التعاقبية على أفضل وجه من أجل أن تدعم وتؤازر الستراتيجية التراكمية بما يخدم المسار العام والمرغوب به للحرب وأن تستفيد منها أيضاً .

يجب أن يكون التطبيق العملي المباشر على معضلات عصرنا هذا دقيقاً في تحديد افضل طريقة فاعلة في دمج ستراتيجية تراكمية في البحر والجو مع ستراتيجية تعاقبية في البر والبحر .

وفي معرض اقتراحي لهذا الاسلوب بوصفه اداة مساعدة في صياغة مفاهيم سوقية سأورد التحفظين التاليين :

الأول : ان هذا المفهوم لنمطي عمليات مختلفتين لا يشكل بحد ذاته أساساً كافياً لمفهوم الحرب في شموليتها بل قد يكون اداة مفاهيمية يمكن استخدامها ضمن الخطوط العريضة لواحدة او اكثر من نظريات الحرب أو ستراتيجيتها والتي سأتطرق إليها بعد قليل .

الثاني : انني لا أعني ضمناً بأن مفهوم النمط العملياتي هذا يمكن أن ينظم أو يقولب الى الحد الذي يتحول فيه الى شيء جامد ومحدد كالجداول الحسابية .

وإذا كانت ثمة فائدة ما في هذا الاسلوب فهي تتمثل في كونه مقترباً فكرياً او مفهوماً للاستدلال ضمن الحدود التي تتيح للمرء ان يوازن ما بين هذه او تلك من النتائج المحتملة واخشى انه قد لا يكون اكثر من ذلك .

الفصـل الرابـع

مسوغات وجود النظرية في الستراتيجية



كان القسم الأعظم من هذه المناقشة ولحد الآن ليس أكثر من نقد شديد لمسالك دراسة الحرب وأساليبها التي لاقت رواجاً أو كانت في الأقل قيد الاستعمال العام ولسنين طويلة خلت .

واني لأشعر بالأسى والأسف أمام الحقيقة المؤلمة وهي ان القليل ، والقليل جداً من الجهد المنظم قد بذل أو وجه حتى الآن لدراسة **الحرب في شموليتها** ـ ولا علاقة لهذا المصطلح بمفهوم «الحرب الشاملة» ـ وأن هناك القليل فقط من الادراك ـ أو لا شيء منه هناك على الاطلاق ـ في أن دراسة الحرب تستحق مكانة متقدمة تتطلب ما هو أكثر من مجرد الدراسات الفنية .

يوجه النقد بهذا الخصوص الى مجموعتين من الناس .

الأولى ... وتتمثل بالأساتذة والباحثين الذين لم يدركوا بل وتجاهلوا الحاجة الى جهودهم في هذا الشأن . ولئن احتجوا على ذلك فما عليهم سوى مقارنة اعداد الدراسات ورسائل واطروحات الدكتوراه التي كتبت في أي موضوع يخص الحرب ، بما كتب في مواضيع ثانوية مثل دور السلطات المحلية في برامج انشاء الطرق العامة أو انجازات المصارف الفرعية في حسابات التوفير في عشرينات هذا القرن .

أما المجموعة الثانية التي تستحق النقد فهم زملائي في المهنة وفي جميع فروع الخدمات المسلحة الاخرى لعدم تخصيصهم قدراً أكبر من الجهد لدراسة المعضلة الأساس (الجوهرية) للقاعدة المفاهيمية لحرفتهم ذاتها ، ومن بين هاتين المجموعتين تعتبر المجموعة الثانية هي الأقل استحقاقاً للنقد لأنهم وكممارسين للمهنة العسكرية قد قدموا عدداً أكثر مما يلزم من الرجال (القادة) الأفذاذ الذين قادوا وبنجاح لا مثيل له القوات المسلحة لبلدانهم عندما دعت الحاجة الى ذلك .

وحقيقة الأمر هي أن ثلاثاً في الأقل من نظريات الحرب المميزة والتي سأناقشها بعد قليل مفهومة والى حد معقول من قبل الرجال الذين يمارسونها ، والخطأ الذي قد يكتشفه المرء هنا هو أنهم عموماً لم يدركوا أنهم إنما كانوا يطبقون ويتبعون ـ بل انهم بالأحرى كانوا تحت وطأة ـ نظريات محددة ، ويعاني هذا التفهم الحدسي ، على الضد من التفهم المبني على الادراك والتحليل من عائقين اثنين في أقل تقدير :

إن عدم امتلاك العقول العسكرية للادراك والتقديـر (Appreciation) المبني على التحليل الواعي لأنماطهم الفكرية الخاصة قد حدد الفكر العسـكري وفي العديد جداً من الأمثلة والحالات بحدود الحدس والبداهة الفكريين والذي ظل وبعد حيـاة طويلة من التدريب الفني والمهارة العملية أضيق أفقاً نوعاً ما مما كان يمكن أن يكون عليه أويرجى منه ، بمعنى أن التقدير النظري الأكثر عمومية بامكانه أن يمنح رجل السوق مجالاً اكثر اتساعاً للرؤية ، فضلاً عن أنه سيؤدي الى ازدياد عدد امكانات العمل المعروفة .

كما أن هذا التقيد بالتقدير الحدسي لكل أمريء بنظريته السـتراتيجية سيمنعه تلقائياً تقريباً من اعطاء ما يكفي من القيمة والتقدير لأي نهج آخـر غير الذي يقتنـع ويتمسك به هو ، وذلك هو السبب الرئيس الى حد ما لانعدام التفهم والتواصل ما بين ممارسي ومطبقي مختلف النظريات . وهكذا نرى ان أحدهم يفكر بعقلية الجندي والآخر بعقلية البحار وهلم جرا ... والأمر الملفت للنظر ليس وجود الكثير من الخلاف بين دوائر وزارة الدفاع الأمريكية بل وجود الكثير من الاتفاق في وجهات النظر . وانها لتقـدمة اجلال وتقدير لشخصية الرجال في الخدمات المسلحة الثلاث والذين تمكنوا وبالقليل الذي تيسر لهم من الوسائل والأدوات المفاهيمية المنظمة والمنضبطة لاستخدامهـا في تحليلاتهم وبالتطبيق الفريد لقوة الارادة والرغبـة ولما يمكن أن يسمى بـالاستخدام (الفطري) للذكاء والمعرفة ، تمكنوا من الاقتراب كثيرا من تقدير مواقف كل منهم للآخر ومن تحقيق ترابط أقوى في جهودهم العامة المشتركة .

اعتقد جازماً بأنه لو كان هناك إدراك عام لدى أولئك العسـكريين المحترفين بأن هناك اليوم ما لا يقل عن أربع نظريات ستراتيجية فعالة وعملية - وربما أكثر من ذلك - فلسوف تكون هناك فرص أفضل بكثير لدراسة شاملة ومـركزة وحـاسمة للامكـانات والاحتمالات قبل إقرار الشكل النهائي لأية ستراتيجيـة ، وعندها ستتوفر للستراتيجي الفرصة الضرورية لدراسة شاملة للموقف الذي يواجهه ، وللحكم على ما إذا كان هذا المفهوم أوذاك ، أو أي مفهوم ثالث يجمع فيما بينهما ، هو الأكثر ملاءمة ، ومن ثم ليتولى اعداد (تفصيل) خططه وفقاً للمفهوم الذي استقر عليه وبعد أن أتاح لفكره أن يجول في أوسع ما يسعه في مجالات النشاط الفكري الخلاق .

النقاط / الستراتيجية

وعلى سبيل المثال فلو كان اطلاع البحار على النمط الفكري للطيار اطلاعاً تحليلياً أكثر من كونه اطلاعاً فنياً وحدسياً حسب فسيكون بوسع البحار ، وقتها ، وعند مناقشته للطيار ، أن يكون قادراً على مجاراته ، كما ستكون مجالات وأرضية الفهم المشترك بينهما أكثر اتساعاً وكذلك هو الحال بالنسبة للجندي أو للطيار والعكس بالعكس . واذا ما أشرت في ذلك المثال والى سعة أفق البحار ـ ربما يبرز بشكل أكثر وضوحاً في الحالة الثانية فذلك ربما لأنني انا نفسي بحار وأني قد أستغل انحيازي هذا لاثبات وترجيح حججي .

والخلاصة فإن إدراكنا بل واعترافنا الواضحين والدقيقين في أن هناك عدة أنماط فكرية قد أسهمت في خلق الفكر العسكري وصياغته قد ينتج عنه ستراتيجيات أفضل .

ومن المناسب أن نذكر هنا أن جميع المفكرين العسكريين والستراتيجيين في الولايات المتحدة ليسوا من العسكريين المحترفين إذ قضى معظمهم حياته ـ عدا فترة الخدمة أثناء الحرب ـ كمدنيين ولم يخصصوا إلا جزءاً ضئيلاً من وقتهم لدراسة المعضلات الستراتيجية .

وأود أن أحذر هنا مرة اخرى ، في انني لا أعني بذلك ، ان الأميرالات والجنرالات والعقداء أو أياً من حملة الرتب العسكرية أو أياً من رجال البرلمان أو الصحافة أو من موظفي الخدمة المدنية يجب أن يحصلوا جميعاً على اجازة تفرغ دراسية لسنوات يقضونها على مقاعد الدراسة والبحث كي يحولوا أنفسهم الى منظرين سوقيين ، لأن التقويم والتنقيح الدائمين للنظريات الستراتيجية مهمة لا بد من أن يتولاها الأساتذة الاختصاصيون وليس محترفو الخدمة العسكرية ، بيد أنني اعتقد حقاً انه ينبغي على الرجال الذين يتحكمون أو يمارسون أي تأثير في قضايا الستراتيجية ، أن يدركوا ان النظريات الستراتيجية موجودة فعلاً وأن عليهم أن يسلموا بأنها تؤثر فعلاً في العقل الستراتيجي الفاعل بغض النظر عما اذا كانت تلك العقول تدرك ذلك أم لا ، كما ينبغي عليهم ان يتفهموا أبعاد وجوانب الاطار الفكري العام الذي يمارسون ، هم وزملاؤهم ، فعالياتهم وأنشطتهم وحرفتهم ضمن حدوده .

ولا بد من ذكر أمر آخر قبل المضي في المناقشة ، وهو أن النظرية ليست بحد ذاتها شيئا حقيقيا ملموسا في أي ميدان (زلق) كميدان الستراتيجية ، ولا هي ذات وجود راسخ فعلا ، إنما هي ، وبكل بساطة ، فكرة قد صممت لتفسير حقيقة ما ، أو لتقرير ما يرى المفكر في أنه سيصبح حقيقة ، كما انها وفي الوقت نفسه ترشيد منظم لأنماط حقيقية أو مفترضة من الأحداث ، والمعيار الحقيقي لصواب اية نظرية انما يتمثل في درجة توافق مسلماتها أو تطابق هذه المسلمات مع الواقع في أي موقف حقيقي . فان كان لأية نظرية عسكرية صلاحية وشرعية مؤكدتان ، فما ذلك إلا لأن بعض من جربها حقاً من العسكريين قد أعطاها ذلك القدر من الصلاحية في موقف حقيقي .

ملاحظة عسكرية

تخدم النظرية عادة هدفاً مفيداً والى الحد الذي يمكنها أن تجمع فيه خبرات الرجال الآخرين وأفكارهم وتنظمها ، ومن ثم تستنبط منها ما يمكن أن تكون له قيمة تحويلية (أي قابلة للتحويل) صالحة تسمح بتطبيقها في موقف جديد وحتى مختلف ، كما انها ـ أي النظرية ـ تساعد الممارسين على توسيع آفاق تفكيرهم وتقوية ملكاتهم ونفاذ بصيرتهم بطريقة مرتبة وعملية ومفيدة ومن ثم تساعدهم بالتالي في تطبيقها على الواقع الذي يجابههم .

الفصل الخامس

النظريات السائدة

توجد الآن ثلاث نظريات رئيسة ومعترف بها عموماً في ستراتيجية الحرب فضلاً على نظرية رابعة ظهرت حديثاً ، ويؤمن جميع الستراتيجيين الممارسين تقريباً سواء كانوا من العسكريين المحترفين أو غيرهم بوعي وادراك أو بلا وعي ، بواحدة من هذه النظريات والتي سأسميها لاغراض هذه المناقشة بالنظريات القارية والبحرية والجوية ، أما النظرية الرابعة فهي نظرية ماو تسي - تونك في « حرب التحرير الشعبية » .

لا تتشابه هذه النظريات تأريخياً أو من حيث تقويمها أو بنيتها ، كما تصعب مقارنتها أو موازنتها فيما بينها في العديد من النقاط ، أو في مواجهة بعضها البعض .

تعتبر النظرية القارية أكثر النظريات الأربع تفككاً من حيث قوة البناء والوضوح . فهي تتألف في معظمها من فكرة مركزية مع قدر كبير جداً من الخبرات والتجارب والفهم العام ، وتمتزج هذه بجملتها بالعديد من الأجزاء والموضوعات الفرعية والصغيرة للعقيدة والمعرفة وغير ذلك من الموضوعات التي لا رابط بينها اللهم إلا في بعض الافتراضات غير المسلم بها عموماً ، وتحددت هذه النظرية بكتابات تلك القلة من الرجال الذين كرسوا أنفسهم لمعالجة معضلة « التوجيه الستراتيجي » للجيوش .

أما النظرية البحرية فلم تظهر بحد ذاتها مطبوعة كما لم تثر اهتمام الكتاب إلا منذ بضعة عقود من السنين فقط . مع انها قائمة فعلاً وتتطور باستمرار منذ مئات السنين وبأشكال متعددة ومختلفة ، فهي تمتلك الى جانب المقومات النظرية ذخيرة هائلة من الخبرات في التطبيق والممارسة . وقد بلغت النظرية البحرية ذروتها الكلاسيكية في الحرب التي شنتها انكلترة ضد فرنسا والتي عرفت بـ«الحروب النابليونية» ثم أهملت أو خمدت لقرن ونصف من الزمان لتعود بعدها من جديد فتبلغ ذروتها الجديدة في الكمال العملي إبان الحرب العالمية الثانية .

أما النظرية الجوية والتي أصبحت تحتل الآن مكان الصدارة في تفكير الكثير من السوقيين وفي كل أرجاء العالم فهي تتمتع بميزة فريدة وغاية في الغرابة وهي : انها برزت ونمت واحتلت المكانة التي تحتلها الآن دون أن تزيد عن كونها فكرة مجردة ولم تتطور عبر سيل الخبرات والتجارب العملية كالنظريات الأخرى ، ولهذا فهي لم توضع حتى

الآن موضع التطبيق الكامل ليتسنى اخضاعها للفحص والاختبار والتحليل وبالتالي للتطوير والتنقيح الضروريين والملازمين لكل نظرية اخرى ، الأمر الذي دفع بالكثير من المفكرين الى التشكيك بقيمة نظرية كهذه وبحيويتها وحتى بجدواها . ويصر معظم هؤلاء المشككين على انها أعجز من ان تثبت جدارتها في التطبيق العملي أو حتى أن تحقق ولو بعضاً من النجاح الذي سُلم لها به نظرياً ، وإن كنت اعتقد شخصياً أن لهذه النظرية اليوم درجة عالية من الشرعية الكامنة ضمن حدود فرضياتها المحددة .

أما نظرية ماو تسي ـ تونك في الحـروب السياسية فهي والى حد بعيد أكثر نظريات الحـرب الحالية براعة وحنكة ، كما انها أكثرهن وضوحاً لأنها تعلن عن أهدافها مقدماً وبكل صراحة وأمانة ، كما تهيء مقدماً منظومات التدابير الضرورية المطلوبة لتحقيق تلك الأهداف وما ذلك إلا لأن هدفها سياسي محدد بالدرجة الأولى ولأن وسائلها تشتمل على التدابير السياسية والاجتماعية والاقتصاديـة فضلاً عـلى الوسائـل العسـكريـة الاخرى ، الأمر الذي يشير الى ، نطاق النظرية من جهة والى واقعها المادي في التطبيق من جهة اخرى ويوضحهما . كما ان هذه النظرية منسجمة أكثر من أي من النظريات الاخرى مع السمة الحقيقية للثـورة الاجتماعيـة التي عمت أرجاء العـالم طوال هذا القرن . حقاً ، إن جزءاً لا يستهان به من هذه الثورة الاجتماعيُة انما هو نتاج نظرية « مـاو » في العمل .

النظرية البحرية

طالما أن للنظرية البحرية سجلاً طويلاً وحافلاً من الخبرات والتجارب ولها كذلك نمطاً نظرياً واضحاً الى حد بعيد فلعله سيكون من المناسب والأسهل علينا تناولها بالبحث أولاً[١] .

تتألف هذه النظرية وبإيجاز من قسمين رئيسين هما :

الأول : فرض السيطرة على البحر .

الثاني : استثمار هذه السيطرة على البحر لغرض فرض السيطرة أو مدّها الى البر .

كان كوربيت (Corbett)[٢] أول من شرح ووصف موضوع السيطرة على البحر بوضوح وبشكل متكامل قبل أكثر من جيل مضى ، مع ان ماهان (Mahan)[٣] كان قد أدرك مسألة السيطرة على البحر قبل كوربيت وكتب في عمومياتها ودار حولها ، إلا أنه لم يضع إصبعه عليها بدقة ووضوح ، كما انه لم يلخص أفكاره بعبارات واضحة وشمولية ، كما لم يقدم نموذجاً ستراتيجياً محكماً ودقيقاً للحرب البحرية ، وأكثر ما اشتهر به (ماهان) وما كان عليه حقاً هو ادراكه لدور القوة البحرية كأساس لسياسة قومية (وطنية) ، وحتى الى ما قبل منتصف القرن العشرين لم يعرض أحد الى كتابة للقسم الثاني من النظرية البحرية في الحرب - أي استثمار السيطرة على البحر لغرض السيطرة على البر .

لا أدعي هنا أن النمط الكامل لهذه النظرية لم يفهم بشكل جيد ، ولكن أقول انه لم يعبر عنه بوضوح قبل ما لا يقل عن مائتي عام ولم يتيسر له ، إلّا مؤخرا ، أن يوصف بمصطلحات عامة أو نظرية ويدون على الورق لاغراض المناقشة التحليلية .

إن فرض السيطرة على البحر وبشكله المثالي يعني : أن نعرف تماماً وأن نفرض سيطرتنا التامة على كل شيء يتنقل بحراً . ولقد تم الاقتراب كثيرا من هذا الشكل المثالي للسيطرة في الحروب البحرية القديمة إلا انه لم يتحقق بشكله الكامل مطلقاً إلا في المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ، وعلى وجه الدقة نقول ان ذلك قد تحقق فعلا

وبشكله الأساس المطلق في نهاية عام ١٩٤٤ وخلال عام ١٩٤٥ ولعل درجة مؤثرة من السيطرة وليس السيطرة المطلقة هي كل ما يتوجب أو نحتاج أن نسعى إليه ونكافح من أجله في أكثر المواقف الفعلية .

أما المسائل الفرعية كالسيطرة المحدودة ، أو السيطرة المحلية ، أو السيطرة العابرة على البحر فهي ، جميعها ، موضوعات جديرة ببحوث مستفيضة ، إلا انه من غير الضروري التوسع فيها في مناقشة عامة كالتي بين أيدينا .

والى قبيل الحرب العالمية الثانية كان النصف الثاني من النظرية البحرية للستراتيجية أو ما يعرف بصفحة « استثمار السيطرة الى البر ... » عملية مسهبة وغير مباشرة وقد سلط ضغط الاستثمار ذاك ، وفي حالات كثيرة ، عبر مسالك وأساليب اقتصادية أدت فيها النتائج السياسية والاجتماعية العرضية الى تعزيز الضغط الاقتصادي . فالحصار مثلا وبجميع أشكاله وتشعباته كان اداة أساساً في استثمار القوة البحرية ، كما ان ايصال الجيوش الى مناطق الانزال الجوية واسنادها كانت هي الاخرى من وسائل استثمار السيطرة البحرية ولو انها لم تكن من الوسائل الحاسمة إلا انها ما كان يمكن تحقيقها في جميع الأحوال لغير القوة التي تسيطر على البحر .

كان يمكن لكل من القائد البريطاني ويلنكتن في حملته في البرتغال وأسبانيا وفي حربه ضد نابليون ، ولجورج واشنطن في « يورك تاون » أن يواجها مواقف صعبة للغاية بل ومستحيلة لو أن زملاءهم في البحر لم يؤدوا واجباتهم كما يرام مقدماً . فعندما وصل نابليون الى سواحل القنال الانكليزي واجه المعضلة التي كانت بحجم ، عجز هو نفسه ، عن فهمها بكل ابعادها فأدار وجهه بكل بساطة مبتعداً عنها ، ولعل أحد جواسيسه نقل إليه المقولة التي تنسب الى (ايرل ، أوف ، سانت فنسنت) في اجتماع المجلس الحربي البريطاني الذي ناقش فكرة احتمال الغزو الفرنسي للجزر البريطانية حيث قال الأميرال الأول للبحر : « ... انا لا اقول أن الفرنسي (نابليون) لن يأتي ولكن أقول فقط إنه لن يأتي عن طريق البحر ... » .

وباستثناء بضعة أمثلة متفرقة عن عظام رجال كانت بهم حاجة الى الاستحكامات الساحلية . كان الجنرال وولف[1] في كويبك . أحدهم ، نال فكرة زج القطعات وبشكل

مباشر من البحـر ومواصلة القتال على الساحل لم تكن ممكنة تقريبـاً حتى الى بضع عشرات قليلة من السنين وذلك لعدم تيسر المتطلبات الفنية والمعدات والآلات والحماية والاسناد والمواصلات المتبادلة والمتطلبات الاخرى الضرورية لتنفيذ صـولة برمـائية وإدارتها حتى الى وقت قريب من الحـرب العالمية الأولى .

وخلال الحـرب العالميـة الثانيـة فقط تيسر للقادة كل ما يحتاجونه من الوسائل الضرورية للقطعات لاقتحام السواحل من البحـر مباشرة أي كل ما تتطلبـه الصولة البرمائية من زوارق وعجلات ودروع ومدفعية ومعدات مخابرة وشؤون ادارية ووسائل ارتباط وغيرها من الأمور الضرورية ضد أية مقاومات عـزوم ، ولم تتوفـر كل هـذه المتطلبات مجتمعة في وقت واحد إلا خلال الحـرب العالميـة الثانيـة وهذا يعني انه في حوالي منتصف هذا القرن فقط أمكن تطبيق أعمال عسكرية وانجـازها وفقـاً للشكل الأساس لنمط السـتراتيجية البحـرية ، هذا النمط الذي كان حتى ذلك الحين (التاريخ) واضحاً ومحدداً في صفحته الأولى فقط أي صفحة (السيطرة) . أما في صفحته الثانية ، أي صفحة استثمار السيطرة نحو الساحل فقد كان النمط السـتراتيجي البحـري ، وعلى عكس الصفحة الأولى ، غامضاً وملتوياً وخادعاً وبطيئاً وان كان فاعلاً في الوقت نفسه ، ذلك لأنها ـ أي الصفحة الثانيـة ـ كانت والى درجـة كبيرة عمـلاً أو أعمالاً اقتصادية وسياسية أكثر منها عسكرية .

التطور التكنولوجي الأكثر حداثة في الصفحة الثانية من مفهوم الحـرب البحرية ـ أي استثمار السيطرة على البحـر لمدها الى الساحل ـ يتمثل في الغواصات القادرة على اطلاق صواريخ بولاريس ، ويشكل هذا التطور اضافة مهمة وتطويرا تقنيا كبيرا وأكثر حداثة لصالح الصفحة الثانية لمفهوم الحـرب البحـرية ولكن ولكي تكون تلك الغواصات حاملة صواريخ بولاريس فعالة بما فيه الكفاية فلا بد من توفير الحماية الضرورية لها أولاً ضد الضربات الوقائية ، أو (الاجهاضية) التي قد يشنها العدو نحوها حتى قبل ان تتاح لها الفرصة الكافية لاطلاق الصواريخ ، وتبرز لنا هنا معضلة جديدة ، إذ لا يمكن تأمين الحماية الضرورية المطلوبة للغواصات قبل الاطلاق إلا بعد تحقيق درجة معينة من السيطرة على البحـر ، هذه السيطرة التي ستعبـد بدورهـا الطريق لتحقيق الصفحة

الثانية من مفهوم الحرب البحرية لأن تحقيق هذه الصفحة يعتمدُ في هذه الحالة على القوة التدميرية للصواريخ التي تعد أسلحة عالية الكفاءة والاختصاص إلا انها وبأية حال اسلوبٌ غير مألوف لغرض ممارسة السيطرة ، هـذا ولأن من الأسهل علينـا متابعـة الموضوع من جهة علاقته بالنظـرية الجوية لذا سيتم التوسع في تنـاول العلاقـة بين التدمير والسيطرة بعد الانتهاء من تقديم المفهوم الجوي .

النظرية الجـوية

تعتبر النظـرية الجوية وكما أشرنا الى ذلك في البداية ، فريدة في نوعها ، اذ انها وجدت في الأساس كنظرية أكثر من كونها قانوناً أو نظاماً (System) أكدته التجـارب والفحوص العملية وتدرج في النمو كنمط هادف ذي معنى عبر السنين والحـروب .

يثار الكثير من الجدل حول ما اذا كانت القوات الجوية الحديثة قد أنشئت ونظمت وفقاً لنظرية الجنرال الايطالي جيليو دوهيه[٥] .

ويلاحظ أن أكثـر ممارسي هـذه النظريـة ومعتنقيها الآن يمتعضـون من تهمة خضوعهم لهذا التأثير ، إلاّ أن معظم الذين تناولوا هذه المعضلة بالبحث ، بأية درجة من الدقة والعمق ، يتفقون على أن بديهيات دوهيه ومسلماته كانت نقطة انطلاق صحيحة وفاعلة لصياغة النظريات الحديثة في الحـرب الجوية . وقد اعترف جنرال الجو الأمريكي أج.ارنولد في كتابه « المهمة الكونية »[٦] بنظرية دوهيه أساساً فكرياً ، كما أشـار الى تطوير الولايات المتحدة لنظريات دوهيه والتي كانت تدرس علماً تجريديـاً في مدرسـة التعبئة الجوية (الأمريكية) لسنوات عديدة في ثلاثينات هذا القرن .

وعليه وبغض النظر عن بعض الاختلافات التي قد تقع حول الكثير مما له صلة بالأحداث الجارية فسنعتبر دوهيه المصدر الأساس والأفضل لمفهوم النظـرية الجـوية .

اقتنـع جيليو دوهيـه وحتى قبل نشـوب الحـرب العالميـة الأولـى بـأن ظهور الطائرات سيؤدي الى ثورة جذرية في الحـرب وقد عرض آراءه ومعتقداته في سلسلة من

المقالات والمناقشات التي نشرت في المجـلات المتخصصة في ايـطاليا ، ومن ثم وسّـع اطروحاته وأعاد صياغتها وتولى اصدارها في كتاب ما بين عامي (١٩٢١ ـ ١٩٢٧) . ولقد توصل رجال آخـرون في بلدان اخرى ـ مستقلين عن دوهيـه في بعض النواحي ومتأثرين بـه في نواح اخـرى ـ الى الأطروحات العـامة نفسهـا التي توصـل إليها ، ومعتقدات دوهيـه الأساس وكما عرضها بايجاز في كتابه « قيادة الجـو Command of the Air » كما يلي :

١ ـ يعتمـد شكـل أي حـرب ... عـلى الوسـائـل الفنيـة المتيسـرة لتلك الحـرب ـ ص ٦ .

٢ ـ .... سيقلب السلاحان الجديدان .... السلاح الجوي والغازات السامة ... كل أشكال الحـرب المعروفة لحد الآن .

٣ ـ ستجعل القوة الجـويـة (Air-Power) متمكنة لا من شن غـارات القصف الجـوي على أي قاطع من أرض العدو فقط ، وانما ستمكنها من تخريب بلاد العدو كلياً بالحـرب الكيمياوية والاحيائية ـ ص ٦ ، ٧ .

٤ ـ ليس من شـك الآن بأن نصف التـدمير الذي سببتـه الحـرب (العـالميـة الأولـى) سيكون كافياً لو أنه أنجز في ثلاثة أشهر بدلاً من أربع سنوات ، بل ان ربع ذلك التدمير كان سيكفي هو الآخر لو انه انجز خلال ثمانية أيام فقط ، ص ١٤ .

٥ ـ .... ما من طريقة عملية لمنع العدو من مهاجمتنا بقوته الجـوية إلّا بتدميرها قبل أن تسنح له الفرصة الكافية لضربنا ، ص ١٨ .

٦ ـ هذا هو المفهوم العقلاني والمنطقي ... ان نمنع العدو من الطيران أو شن أية ضربة جوية على الاطلاق ، ص ١٩ .

٧ ـ سيوجه التعـرض الجـوي عمومـاً ضد أهـداف مثل الصنـاعات المـدنية والمؤسسات التجارية والمنشآت المهمة الخاصة والعامة وضد شرايين ومراكز المواصلات وكذلك ضد مراكز التجمع السكاني ... وتدعو الحاجة الى ثلاثة أنواع من القنابل ... اولاً قنابر المهداد لتدمير الأهداف ، ومن ثم القنابر الحارقة لاشعال النيران فيها وأخيراً قنابر الغازات السامة لمنع فرق الأطفاء من مكافحة النيران ص ٢٠ .

٨ ـ يعني امتلاك السيطرة وفرضها على الجو منع العدو من الطيران في الوقت الذي نحتفظ فيه لأنفسنا بالقدرة على ذلك ... .

٩ ـ الأُمة التي فرضت سيطرتها على الجو هي في وضع يمكنها من ... ايقاف اعمال العدو المساعدة التي (وصفت في مكان آخر كوحدات «عناصر» جوية للقوات البحرية والبرية) لاسناد عملياته البحرية والبرية وهكذا نجعله عاجزاً عن القيام بأي عمل ، ص ٢٥ .

١٠ ـ ان انتزاع السيطرة وقهر القيادة الجوية المعادية يعني النصر ، وأن الهزيمة في الجو تعني الاندحار والقبول بكل ما يريد العدو فرضه علينا ... ان ذلك أمر بديهي ، ص ٢٨ .

١١ ـ نصل من هذه البديهية مباشرة الى النتيجة الطبيعية الأولى وهي : كي نؤمن دفاعاً[٧] كافياً فمن الضروري ـ والى حد بعيد ـ أن نكون بوضع يسمح لنا وحال نشوب الحرب أن ننتزع السيطرة الجوية ونصل من ذلك الى النتيجة الطبيعية الثانية وهي : أن كل ما يتوجب على الأمة فعله لتأمين الدفاع عن نفسها هو أن تضع نصب عينيها تأمين الوسائل الأكثر كفاءة وفاعلية لانتزاع السيطرة الجوية حال نشوب الحرب ص ٢٨ .

١٢ ـ .... يعتبر أي انحراف عن هذا الهدف الأساس خطأ كبيرا جدا ص ٢٨

١٣ ـ .... لا أريد إلا تأكيد اعطاء السلاح الجوي الأهمية التي يستحقها . وانقاصاً مطّرداً للقوات البرية والبحرية تقابله زيادة للقوات الجوية الى الحد الكافي لانتزاع السيطرة الجوية .... ص ٣٠ .

١٤ ـ هذه السمة الجديدة للحرب ... سوف تخلق تحولات جذرية وتؤدي الى قرارات سريعة وحاسمة ، ص ٣٠ .

١٥ ـ لذلك علينا تقبل الهجمات التي يوجهها العدو نحونا بينما نكافح لتجميع كل ما لدينا من قوة لتسديد ضربات أثقل وأقسى من ضربات العدو ، ص ٥٥ .

١٦ ـ يجب أن تكون القوة الجوية المستقلة حرة تماماً من أي انهماك أو انشغال بأعمال أو واجبات ضد القوات المعادية (لتتفرغ لانتزاع السيطرة) ص ٥٩ .

١٧ ـ .... إن التنظيم الجـوي الوحيد الذي لوجوده مبررات تامة ومعقولة هو القوة الجـوية المستقلة ،ص ٩٥ .

لقد بذلت كل ما استطيعه من جهد لكي اتجنب هنا الاستشهـاد و (الاشارة) بالمقاطع والنصوص التي يسهل تأويلها أو تتقبل عدة تفسيرات ومعانٍ ، بل قد تصاب بالتشويه فيما لو اجتزئت من سياقها كما تعمدت حذف المراجع والاشارات ذات الطابع المحلي التي تزخر بها كتابات دوهيه ، والمقتطفات التي سقتها هنا تتوخى تقديم شريحة أمينة لنمط فكري غاية في الأهمية ، ولو نظر أحدهم الى دوهيـه بوصفه قدوة لنمط فكري معين فسيصبح عندها من السهل تماماً تفهم خطوط المناقشة في السنوات العشر التي تلت الحـرب العالميـة الثانيـة من قبل بعض مؤيدي القوة الجـوية[٨] (Air Power) والقوة الجـوية المستقلة عن الخدمات المسلحة الاخـرى . والقوة الجـويـة التي تهيمن على القوتين الأخريين ، أي أن تكون القوة الجـوية هي السلطة العليا في بناء القوات المسلحة للأمة ، وقائمة مؤيدي القوة الجـوية طويلة جدا ومثيرة وتضم أسماء العديد من الرجال الذين كانوا وما زالوا من بين أكثر الرجال احتراماً في عيون الأمة . ولنستعرض هنا بعض الأطروحات التي سادت في السنوات العشر التي تلت الحـرب العالميـة الثانيـة :

١ ـ استقلال الطيران العسكري (طيران الجيش) وطيران القاصفات خاصـة خلال الحـرب العالميـة الثانيـة وكذلك الاستقلال الذاتي تنظيمياً للقاصفات الثقيلة منذ ذلك الحين .

٢ ـ مفهوم التجريد لـ« عزل ساحة المعركة » والذي أثـار مناقشـات جديـرة بالاهتمام ما بين الجيش والقوة الجـوية بخصوص الأهمية النسبية للتجريد وللاسناد الجـوي المباشر في ساحة المعركة ويعترف بكليهما بوصفهما مطلبين مهمين وملزمين .

٣ ـ مشكلات القيادة بين الجيش والقوة الجـوية إذ يتوجب أن يكون الطيار فيها أقرب ما يمكن الى الاستقلال الذاتي .

٤ ـ التوسع الذي تعـرضت له الموضـوعات التي تنـاولتها مقـولات (دوهيـه) وفرضياته في ما كان يعرف حتى الى ما قبل عشر سنوات مضت بـ« الحرب الوقائية Pre-ventive War » . كان هذا موضوعاً شديد الحساسية حقاً واتخذ بعض الذين بحثوا

وتكلموا فيه (من عديمي التفكير) موقفاً متطرفاً قبل بضع سنوات ، ويبدو ان المضمون الكامل له أصبح مفهوماً الآن وبشكل جيد ، ولم يعد في السنوات الأخيرة إلّا القليل النادر من التعليقات العامة والجدل حوله .

٥ ـ التأكيد الذي أعطي خلال حقبة الخمسينيات في الميزانية على حساب الاسناد المباشر للقطعات مثلاً أو الواجبات الاخرى المشابهة التي لم تكن من الأمور المركزية في نظرية دوهيـه .

٦ ـ الحـرب السريعة أو الخاطفة quick War والتي ينتهي كل شيء فيها خلال عشرة أيام أو ثلاثين أو تسعين يوماً .

ينبغي أن نبين هنا وبوضوح ان هذه ليست صورة دقيقة للمسألة المطروحة الآن أو التي كانت مطروحة منذ منتصف الخمسينات في كراسة « العقيدة الأساس للقوة الجـوية في الولايات المتحدة » المؤرخة في نيسان ١٩٥٥ كما انني لا أحاول هنا مطلقاً ان أعرض مواقف رسمية بقدر ما حاولت توضيح المواقف والأعمال لواحد من أهم الشرائح الفكرية التي كانت قد استندت الى أسس نظرية واضحة ومبررة .

لعله من المفيد حقاً متابعة صلاحية مفعول نظرية دوهيـه وسريانها الواضح للعيان . ولو انها والى ما قبل الحـرب العالميـة الثانيـة لم تكن أكثر من مجرد فكرة ، وقد وضعت النظرية ـ أو بعض منها في الأقل ـــ موضع التجربة خلال تلك الحـرب ويمكن مناقشة النتائج . ـ وكما حدث فعلاً ـ وبالطريقة التي يراها المرء منـاسبة له وبغض النظر عما إذا تمت برهنة هذا أو ذاك من أقسام النظـرية أو أن الفرصة المناسبة لم تسنح لوضع النظـرية موضع التطبيق العملي وبالشكل الملائم . وعلى كـل حال فقد أخضعت نظرية دوهيـه وبشكلها الكامل في أواخر الحـرب العالميـة الثانيـة (حزيران ١٩٤٥) لفحص جدي من قبل عدد كبير من النقاد إلّا أن تفجير أول قنبلة ذرية بعد وقت قصير من ذلك التاريخ قد غير صورة الحـرب بكاملها وبشكل جذري .

لقد ساعدت الأسلحة النووية اكثر من اي شيء آخر عدا الطيران نفسه على تأكيد الفاعلية الكامنة لافكار دوهيـه وحيثما ذكر (دوهيـه) الغازات السامة نستطيع أن نضع مكانها الأسلحة النووية . وإذا تقبلنا الفرضية الأساس بأن التدمير يعادل السيطرة

ويساويها فسيمنح ذلك اطروحات دوهيــه درجة عالية من الصلاحية الكامنة .

ولكن هنالك اليوم ثلاث معضلات ملازمة للنظرية الجـوية :

الأولى : وهي مسألة ما اذا كانت الأسلحة النووية ستسخدم فعلاً ، والاجابة على ذلك أمر خارج نطاق حكم العسكريين أو اختصاصهم . وينحصر الجـانب العسكري للمعضلة في ضرورة التهيؤ لكلا الاحتمالين ، اي حالة استخدام الأسلحـة النـووية أو الاحجام عن استخدامها .

المعضلة الثانية : وهي تأثير التكنولوجيا الفضائية والتي تطورت بشكل متفجر ، فهل يمكن تطوير النظرية الجـوية وتـوسيعها لتـدخل هي الاخـرى ضمن النظريـات الفضائية (Aerospace - Theories)[٩] وما زال العديـد من الرجال الأكفـاء والقادرين يتصارعون مع هذه المعضلة حتى في أيامنا هذه ولم يتضح بعد ما ستكون عليه النظرية الجديدة أو المحورة . ومهما يكن الشكل الذي ستتخذه فلا بد من انها سترتبط بطريقة أو بأخرى بالعلاقة ما بين التدمير والسيطرة .

المعضلة الثالثة : والتي لم يتم تناولها أو الاجابة عليها بشكل كافٍ لحد الآن والتي يمكن أن نعرضها وبايجاز تام هنا وهي : ما نوع السيطرة المرغوب في تحقيقها ، وتحت أية ظروف سيحقق التدمير أو التهديد بالتدمير تلك الدرجة المطلوبة من السيطرة ؟ ان الوصول الى أو اصدار أحكـام حول أمـور كهذه يعـد من بين أصعب معضـلات السـتراتيجية وأكثرها استحقاقاً للتأمل .

النظريـة القاريـة

قدمنا حتى الآن أسس المفاهيم البحرية والجـوية للستراتيجية في العمل فماذا عن مفهوم السـتراتيجية لدى الجندي ؟

اولاً : نلاحظ وقبل أي شيء أن لكلمة «السـتراتيجية» لدى الجندي دلالة ومعنى يختلفان كلياً عما لدى البحار أو الطيار . وسبب ذلك محير وغير مفهوم حقاً إلاّ انه قائم على أية حال وما علينا سوى التعامل مع الظروف التي خلقت هذا المفهوم المختلف لدى

الجندي . ففي الوقت الذي يفكر فيه البحار او الطيار على مستـوى العالم كـلاً نرى الجندي وعلى العكس من ذلك يفكر بصيغة اخرى ، صيغة أو مستوى مسارح أو ساحات العمليات ، وحتى صيغة الحملات والمعارك ، ولا تختلف هذه الصيغ أو المفاهيم الثلاثة بعضها عن البعض الآخر اختلافاً جذرياً أو حاسماً (وان كانت تقل في اتساعها عن ميدان النشاط الذي يمتد إليه مفهوما البحار والطيار في الستراتيجية) .

لقد تكونت هذه الحالة العقلية التي يستنبط منها الجندي مفهومه الخاص بالمشهد الستراتيجي وبالمقام الأول من مسألة جغرافية . فالأرض هي الحقيقة المبدئية ذات التأثير الحاسم والمباشر ، و « الأرض Terrain » ككلمة ليست لها تلك الدلالة العميقة في نظر الآخرين من غير الجنود إلا انها هي كل شيء بالنسبة للجندي فهي الميدان الثابت الذي يعمل فيه كما انها الأبعاد والتحديدات التي يتحرك ضمنها ، كما انها هي الخصم الذي تجب مواجهته دائماً وأبداً كائناً من كان العدو ، عدا عن أن « حقيقة الأرض » هي التي تهيء الميدان الذي يتوجب على فكر الجندي المحترف بناء خططه في اطاره .

وفي الوقت الذي نجد فيه البحار والطيار مجبرين تقريبا وبسبب طبيعة البحر والجـو على التفكير بمستوى العالم كلاً أو في الأقل للنظر خارج الحدود الطبيعية لما كان موضع اهتماماتهم المباشرة ، يظل الجندي مطوقاً ـ وبالمعنى الحرفي للكلمة ـ بأرضه .

ومن حقيقة كون الأرض هي العنصر المقيد ، لذا ظهر مفهوم « المسرح Theater » في ستراتيجية الجندي ، ويشكل هذا التقسيم للأرض نوعاً من الاستبداد أو التحكم الاعتباطي نوعاً ما بالنسبة للبحار أو الطيار . مع أنه يبدو منطقياً وسليماً لو نظرنا إليه من داخل «مقر» الجندي . إن فكرة المسرح في مفهوم الجندي لقضايا الستراتيجية تمثل وفي آن واحد مظهراً أو علامة للتحديدات الطبيعية (التي تفرضها الأرض) والنتيجة المباشرة لها ، ولنتفحص مقولة نابليون بهذا الصدد بما معناه : ان الحدود الطبيعية هي الجبال والصحارى والأنهار ، لأنها مقولة صدرت عن الرجل الذي وقف وهو بحالة عجز تام ولا حدود له على ساحل القنال الانكليزي .

الأرض إذن هي نقطة الانطلاق لمفهوم الجندي للحرب ولا يحط ذلك من قيمة هذا المفهوم . فالجندي وضمن البيئة التي يعمل وسطها مصيب تماماً في ذلك لأن الأرض

موجودة بالنسبة له في كل مكان وعلى الدوام كما انها المكان الوحيد الذي يستطيع الانسان أن يحيا فيه ولكن علينا أن ندرك في الوقت نفسه أن الأرض التي هي شيء أساس بالنسبة للجندي لا تمثل بالنسبة للبحار أو الطيار اكثر من انها مجرد الهدف الذي يجب الوصول إليه وقد لا يعني ذلك بالضرورة انها أيضاً الأرض نفسها التي شرعنا منها .

والعامل الثاني : الذي له تأثير أساس ومباشر في النمط الفكري الستراتيجي للجندي وذو علاقة وثيقة بحالة الأرض أيضاً ، فهو ـ أي هذا العامل ـ طبيعة القتال الذي يخوضه الجندي ، وبالتالي طبيعة مفهومه للستراتيجية .

يواجه كل من البحار والطيار الحرب كسلسلة منفصلة من الاشتباكات ، وينفصل الطرفان المتقاتلان عن بعضهما بعد كل اشتباك ويتوقفان عن القتال ثم يعيدان تجحفل قواتهما ويسعيان لاحتلال مواضع جديدة ويحتفظ كل منهما بقدر كبير من حرية القرار حول ما اذا كان عليه ـ أو يرغب في ـ مواصلة القتال مرة اخرى وأين ؟ ومتى يريد ذلك ؟ وفي معظم الحالات لا يخوض البحار والطيار الحرب ضد خصومهم إلا عند توفر الرغبة المشتركة على القتال لدى الطرفين المتقاتلين ـ أو لدى أحدهما في الأقل ـ لسبب أو آخر . ولقد أدرك ماهان وربما كثيرون قبله أن من المناسب التمييز بين المسائل التعبوية والسوقية استنادا الى الحقيقة البسيطة المتمثلة في « التماس Contact » إذ وبعد تحقيق التماس بين المتحاربين تصبح الخطط والعمليات العسكرية كافة «تعبوية» في حين يعتبر كل ما هو خارج حدود التماس «ستراتيجيا» .

أما بالنسبة للجندي فالأمر ليس كذلك إذ أن مفهومه في الفصل ما بين السوق والتعبئة ، وبالتالي مفهومه عن نطاق الستراتيجية مفهوم مختلف تماماً وليس لقاعدة «التماس» أية صلاحية أو قوة حاكمة فهو ـ أي الجندي ـ يحقق التماس عند ابتداء الحرب أو عند بدء الاشتباكات ويبذل بعد ذلك كل جهد ممكن وبعناد واصرار لادامة التماس خلال الحرب وحتى نهايتها .

وإذا فقد الجندي التماس مع العدو ولأي سبب كان فسيصبح في موقف سيء ، والفاصل ما بين الستراتيجية والتعبئة لدى الجندي ليس واضح الأبعاد وأخشى ألا تكون له أهمية كبيرة عنده .

ونجد في المقولة التالية من الحقيقة اكثر مما فيها من السخرية وهي : بالنسبة للجندي ، فإن كل ما يفعله هو يدخل في نطاق **التعبئة** ، وكل ما يفعله رئيسه الأعلى التالي فهو **ستراتيجي** ، ويسري ذلك عموماً على الجميع ، من الجندي الفرد وحتى القائد العام للجبهة ، كما يبدو ان هناك موافقة بديهية لا اعتراض عليها في الجيش وهي أن ما يواجهه الضابط الأقدم في الجيش في حرب متعددة الساحات (الجبهات) من معضلات إنما هي معضلات ستراتيجية أما التي تواجه من هم أدنى رتبة منه فتتحول ، وبقدرة قادر الى معضلات تعبوية لا ستراتيجية .

إذن ، فان قائد الجبهة يصبح هنا الفيصل (لاحظ تأثير الأرض مرة اخرى) الذ تتحول فيه ومن خلاله التوجهات الستراتيجية الى أوامر تعبوية .

ومن العاملين أعلاه ـ حقيقة الأرض وأهميتها التي لا جدال حولها كميدان للنشاط الانساني وحقيقة أن التماس أمر جوهري ودائمي في الحرب البرية ـ من هذين التأثيرين نستنبط العامل الحاسم **الثالث** في نمط التفكير الستراتيجي للجندي والذي يمكن ايضاحه وبأفضل طريقة بالاستشهاد مباشرة بما ورد في النسخة الصادرة في منتصف عام ١٩٥٠ من أنظمة الخدمة السفرية [ان الهدف النهائي والدائمي لجميع العمليات العسكرية هو تدمير قوات العدو المسلحة والقضاء على رغبته في مواصلة القتال[١٠]] ، وتلخص لنا هذه العبارة جوهر المفهوم النظري للجندي عن ستراتيجية الحرب في عبارة محكمة ودقيقة واحدة ، ومن البديهي لمُنظّر مثل كلاوزفنج أن يكون هدف الحرب لديه هو ... « تدمير قوات العدو المسلحة ... » وتتكرر هذه المقولة عند كلاوفنج وعند جميع من جاءوا بعده ، وكذلك عند شراحه وعند من تولوا دراسته ، وبعد ان يتم ذلك ، أي بعد مواجهة وتدمير الجيش المعادي ، فإن كل ما نحتاجه بعد ذلك من أمور اخرى سيتم في حينه وبطريقة أوبأخرى ، وقد عبر الجنرال ايزنهاور ، نيابة عن كل الجنود ، بشيء من ذلك في كتابه « حرب صليبية في أوربا »[١١] . عندما أشار الى أهداف المستر تشرشل السياسية واهتماماته قائلا : « ... بهذا الصدد فاني أتعاطف معه بشدة ، ولكني كجندي كنت حريصاً بشكل خاص على استبعاد مثل هذه الاعتبارات فيما سأضعه من توصيات »[١٢] (ص ٩٤ النص الانكليزي) .

إن أي رأي بهذا الصدد لا يعني على أية حال أن مضمون مقولة ايزنهاور هو اما جيد أو سيء ولقد استشهدنا به لالقاء الضوء على مفهوم الجنـدي للحرب ، هذا المفهوم الذي يتركز وبشكل مباشر على جيش العدو كما انه صريح ومباشر بأروع صورة يمكن أن يصوغها أو يعبر عنها الجنـدي .

لقـد لخصت جميع انمـاط سلوك الجنـدي ومعتقداتـه الكلاسيكيـة في المقولة (الأطروحة) المركزية لكلاوزفتج والذي أوضح لنا فيهـا ان دراسته للحـرب تقود الى القناعات التالية :

١ ـ إن تدمير القوة العسـكرية للعدو هي المبدأ الرئيس للحرب وبالنسبة لجميع الأعمال الايجابية فهو الطريق الرئيس لتحقيق الهدف .

٢ ـ لا يتحقق هذا التدمير مبدئياً إلا بوسائل الاشتباك أي (المعارك) .

٣ ـ ان الاشتباكات (المعارك) الكبيرة والعامة هي وحدها التي من شـأنها أن تحقق نتائج كبيرة وحاسمة .

٤ ـ ستكون النتائـج المتحققـة أكـبر كلمـا توحـدت الاشـتباكات فـي معركـة كـبرى واحـدة .

٥ ـ في المعركة الكبرى فقط يتولى القائد العام ، القيادة بنفسه شخصياً . . .

وسنصل من تلك الحقائق الى القانون المركب التالي والذي تدعم أجزاؤه بعضها البعض ، والقانون هو أننا يجب أن نسعى الى تدمير القوة العسـكرية للعدو بالدرجة الأولى في المعارك الكبرى ونتائجها وان الهدف الرئيس للمعارك الكبرى يجب أن يتمثل بالتالي في تدمير القوة العسـكرية للعدو[١٣] .

اعتاد الكتاب في شؤون الســتراتيجية العسـكرية ومنذ وقت طويل الاقتباس من كلاوزفتـج الذي كانت كتاباته عميقة الغور ومحققة وباحثة بتبصّر متميز ، ذلك لأنه فكر وبعمق في جميع ميادين النهج السياسي ـ العسـكري وبكل ما له علاقة به وباسلوب يعد مفخرة لأي باحث . فقـد تمعن في جميع جـوانب المعضلة ، ولسوء الحـظ فقد مـات كلاوزفتـج قبل أن يتم عمله ونشرت مسودات جميع مقالاته وملاحظاته بعد وفاته على انها أعمال متكاملة ونهائية رغم انها لم تكن كذلك أبداً . وكانت نتيجة كل ذلك ان أصبح

بوسع أي كاتب أو مفكر عسكري ان يدعم أي جانب تقريباً وفي أية مناقشة قد تجري بالاستشهاد بكتابات كلاوزفتـج . وقد تمسـك معظم الكتـاب والدارسين طيلة المئ والخمسين سنة الماضية وبتزمّت بتلك العبارات الصريحة والمباشرة والتي يعتبر ما استشهدنا به قبل قليل نماذج منها ، كما ان ما استشهدنا به من أنظمة الخدمة السفرية للولايـات المتحـدة (طبعـة منتصف عـام ١٩٥٠) من أن ... « الهـدف النهائي والدائم ... هو تدمير القوات المسلحة للعدو ... » دليـل ثابت عـلى ان هذا الأساس النظري - لكلاوزفتـج - قد انعكس حقيقة في التطبيق العملي حتى منتصف هذا القرن .

وليست هذه نظرية في الستراتيجية على الصعيد نفسه الذي للبحار فيه نظرية بحرية أو أن للطيار فيه نظرية طويلة ، بل انها أقل تعقيدا من ذلك ، ولكنها مع هذا ، مفهوم أساس للحرب وان تقييماً جيداً لتلك العوامل الأساس قد يساعـد كثيرا غير الجنـود على تفهم السبب الذي حدا بالجنـدي لأن يفكر بالطريقة التي فكر أو يفكر بها .

لعل ذلك يفسر لنا على سبيل المثال آراء الجنـدي الضمنية ومعتقداته - بل وحتى الصريحة أحياناً - في ان القوات الجوية والبحرية لم توجدا أساساً إلا لنقله وايصاله الى ساحة العمل (أي القتال) ثم لتتولى بعد ذلك اسناده وامداده بما يحتاج ، وفي الوقت الذي يريد . ويرى الجنـدي ان جيش العدو هو النقطة المركزية الأولى في الحـرب ، وكل ما عداها ينبغي اعتباره من الأمور الثانوية تماماً ، وسرعان ما ينفد صبر الجنـدي مع البحرية اذا ما وجدت لنفسها عملاً أو واجباً ما قد يتعارض مع مهمة ايصال الجنـدي الى حيث يريد (أي حيثما يوجد جيش العدو) ومن ثم المحافظة على وصول سيل الاسناد والامدادات إليه ، وكذلك هو حال الجنـدي مع الطيار عندما يسعى هذا الى تدمير أحد مصانع العدو ويريد منه - الجنـدي - بدلاً عن ذلك مشاغلة وتدمير رتل الدبابات المعادية الذي يتحرك عبر الوادي الكـائن الى اليسار أو اليمـين منه ، هـذا مع أن الجنـدي - والقليل من الرجال فقط يدركون أو يؤيدون ذلك - هو الوحيد من بين رجال الخدمات المسلحة الثلاث الذي لا يستطيع اكمال دوره في الحـرب بمفرده ، فالطيار مثلاً يستطيع مقاتلة العدو جواً وكذلك قصف مصانعه أو قواعد اطلاق الصواريخ أو أية أهداف اخرى يختارها ، منجزاً كل ذلك بمفرده ودون أية حاجة للمساعدة من الجنـدي أو البحار ،

وهذا الأخير كذلك ، فهو يستطيع الابحار بعيداً واغراق سفن العدو وفرض سيطرته على البحار بل وحتى مد نفوذه الى السواحل ، قائماً بكل ذلك بسفنه وبقوته الجوية العضوية وبقواته المتخصصة (وحدات المارين أو مشاة البحرية) في القوة البحرية .

أما الجندي ، فهو ـ وكما قلنا ـ عاجز عن انجاز دوره في الحرب لوحده فأجنحته مكشوفة ومؤخراته واهنة ويتطلع الى الأعلى (الجو) بعينين حذرتين ، فهو بحاجة الى الطيار والى البحار ليؤمنا له العديد من الأشياء بما فيها الحماية الذاتية له خلال قيامه بعمله ، ولعل هذا يجعلنا أكثر تبصراً في مفهوم الجندي للسوق طالما ان ذلك يؤثر وبدرجة كبيرة على أفكاره التنظيمية للحرب ، فهو ولكي يقوم بواجباته بصورة مرضية ، يشعر ـ بوجوب سيطرته على جميع القوات التي تعمل باسناده ، وهكذا نستطيع أن نتفهم طبيعة التنظيم الألماني (للقيادات وهيئات الركن) في الحربين العالميتين حيث كان الجندي هو الأعلى (Suprem) الذي يقود ، وكذلك لتفهم ما نراه من تأكيد مستمر على قيمة الجندي ونفوذه في الولايات المتحدة والمتمثل في الاصرار الدؤوب لدى البعض على انشاء نوع من هيئة أركان عليا واحدة ، وكذلك فيما نراه في قوات حلف شمال الأطلسي ـ الناتو ـ والمؤسسات العسكرية الأمريكية في أوربا الآن وحيث يتمتع القائد الأعلى بسيطرة تنظيمية على القوات البحرية والجوية .

أما الحكم على ما اذا كان ذلك منهجاً نحو الأفضل أو الأسوأ فأمر قد أثار الكثير من النقاش . وهناك قدر كبير من الحجج المدعمة بالأسانيد والمؤيدة له وحتى المسلم بها في سياق هذا الجدل أو المجابهة مما لا يمكن تقريباً دحضه ، إلا أنه تظل هناك أيضاً تساؤلات وشكوم كثيرة حوله : فهل يا ترى أن الفرضية القائلة : « إن الهدف النهائي للعمليات يجب أن يكون تدمير جيش العدو » فرضية صحيحة حقاً ومشروعة دائماً ؟ وفي الاجابة على ذلك لنا أن نتذكر فقط ان الجيش الياباني قد خرج من الحرب العالمية الثانية سليماً ولم يتم تدمير القسم الأعظم منه عام (١٩٤٥) كما أن هزيمة (ديان بيان فو) لم تشمل هي الاخرى إلا جزءً صغيراً من مجموع الجيش الفرنسي في الهند ـ الصينية ، ومع ذلك فقد حقق الشيوعيون نصراً كاملاً في ذلك الموقف لأن الشعب الفرنسي الذي هزته الصدمة رفض ان يزج به في أوحال هزيمة عسكرية لأسباب سياسية

ومع ذلك وفوق كل اعتبار آخر فإن الطيار (القوة الجوية) والبحار (القوة البحرية) وحتى رجل السياسة أيضاً ، وانطلاقا من نقاط شروعه الفكرية المختلفة قد يوافقون على التمعن وبدقة في هذه الفرضية الأساس للجندي .

لقد كان البحار ، ومع بعض المساعدة من الطيار ، هو الذي أخضع المفهوم التنظيمي للجندي للفحص والتساؤل وكان هذا الاختلاف الأساس في المفهوم هو الذي أثار المناقشات الحامية حول التنظيم الدفاعي في أواخر الأربعينات والخمسينات في الولايات المتحدة .

فالجندي وهو عاجز عن خوض واستكمال حربه لوحده ، يشعر بأن وجود قيادة وطنية مركزية موحدة ، أمر ضروري لتوفير اسناد كاف وفاعل للجيوش العاملة فيما وراء البحار ، أما البحار والذي هو أقل اعتماداً والى حد كبير من الجندي على المساعدة الخارجية ، فيشعر بأنه قادر على القيام بعمله كله وبفاعلية وكفاءة أكثر في أي موقف يجري دون أي تدخل أو تطفل تنظيمي للخدمات المسلحة الاخرى في عمله ، ويدعي البحار وهو محق في ذلك ، انه وطوال الوقت لم يفشل ولو مرة واحدة في تلبية مطالب الجندي .

أمّا الطيار فهو موزع بين اتجاهين . فمن ناحية نرى ان القوة الجوية التعبوية في وضع مشابه لوضع الجندي فهي بحاجة لأن يجلب لها ما تحتاجه من تجهيزات ومعدات كما انها بحاجة لأن يدافع الآخرون عن قواعدها ، ويفكر الطيار في هذه الحالة كالجندي تماماً ، أما القوة الجوية الستراتيجية فنرى انها ومن ناحية اخرى ليست بحاجة لأية مساعدة خارجية لانجاز واجباتها ، وفي هذه الحالة يسعى الطيار للوصول الى طريقة ما تساعده على تحقيق استقلال تنظيمي ذاتي يتطابق ومفهوم دوهيه .

ولحسن الحظ لم يوضع أيٌ من الرأيين المتطرفين موضع التطبيق ، والحل المعمول به حالياً ، وهو انشاء « هيئة رؤساء الخدمات المسلحة المشتركة » ، أثبت على الدوام قدرته على تلبية احتياجات جميع الخدمات المسلحة[١٤] .

وتظل المعضلة هي في القرار حول متى وأين وتحت أية ظروف تكون ممارسة هذا النمط في التفكير أو ذاك بفائدة أكثر ؟ . والمعضلة هي أيضاً في : متى يستطيع افكر

العسكري المركب أن يحزم أمره ويتوصل الى قرار ؟

بل ان المعضلة أصبحت اليوم أكثر صعوبة بظهور النظرية الجديدة في الحرب الى الوجود ، تلك النظرية التي لا تنسجم مع أي من القواعد الكلاسيكية ، بل حتى انها لا تعمل في ميادين الصراع والأطر المعروفة نفسها ، وكما تفعل التنظيمات الكلاسيكية للجيوش والقوات البحرية والجوية ، وهذا النوع الجديد من الحرب هو « حرب التحرير الشعبية » كما يسميها مؤيدوها ، وفي الوقت الذي قد لا تكون فيه هذه التسمية بذاتها دقيقة تماماً إلا أنها مع ذلك مفتاح مهم لفهم طبيعتها .

نظرية ماو

تدعى « حرب التحرير الشعبية » عادة بحرب العصابات ، إلا أن هذه التسمية محدودة جداً ، بل وقد تكون مضللة بعض الشيء ولا يمكن استخدامها كعنوان وصفي مناسب ، ومع أن حرب العصابات ليست بالشيء الجديد إذ استخدمت كلمة العصابات ولأول مرة في اسبانيا ووردت في تقارير ومراسلات القائد البريطاني ويلنكتون إبان حروب نابليون ، أما أعمال العصابات فقديمة قدم التاريخ نفسه ، وما من جديد في ذلك إلا أن النظرية والممارسات الحالية هما الجديدان ، ويعدّ ماوتسي ـ تونك الأب الأكبر لها ، ويعد كل من (هو شي منه) و (نجوين جياب) و(فيدل كاسترو) و (ارنستو شي جيفارا) الأنصار والحواريين المبدعين الذين عمقوا ووسعوا النظرية وأغنوها استنادا الى تعاليم مؤسسها ماوتسي ـ تونك .

وأناجيل(*) هذه النظرية تتمثل في بضعة كتب مثل : كتاب ماوتسي ـ تونك « في حرب العصابات » بقلم العميد المتقاعد صموئيل غريفث ، وهي ترجمة رائعة جداً قام بها غريفث لكتاب « يوشي ـ شان » لماو الصادر عام ١٩٣٧ ، وكتاب « حرب الشعب جيش الشعب » للجنرال نجوين جياب وكتاب « ارنستو شي جيفارا وحرب العصابات » بقلم الرائد هاريس ـ كليش بيترسون واذي يضم ترجمة الرائد بيترسون لكتاب جيفارا

الموسوم بـ « حرب العصابات » والصادر عام ١٩٦٠ كدليل للثورة في أمريكا اللاتينية .

تلك كلها ترجمات لكتب شيوعية وصفها منظرون شيوعيون كبار وأكفاء وسبق لهم أن وضعوا نظرياتهم موضع التطبيق ، ولأن هذا التطبيق كان ناجحاً فإن هذه الكتب ـ وأهم منها النظرية نفسها ـ مهمة بدرجة لا تقدر هذه الأيام بالنسبة لأي ستراتيجي في الغرب ، عسكريا كان أو مدنيا ، عدا عن انها ليست كتابات نظرية مجردة فقط ، بل انها تصور لنا واقعا صعبا للحرب المعاصرة .

وقبيل المضي في المناقشة لا بد لنا من ملاحظة نقطة مهمة ، وهي مع ان هذه النظرية شيوعية دون أي شك إلا أنها ليست الشيوعية الروسية بل الشيوعية الصينية وشتان ما بين الاثنتين لما هناك من فروق أساس وحاسمة بينهما .

نحن نعرف ان لكل من ماركس ولينين وستالين وخروتشيف وآخرين كثيرين غيرهم نظريته الشيوعية الخاصة به والتي تستند في أساساتها على بروليتاريا (عمال) المدن . لقد ابتدأها ماركس باختياره عمال المدن الذين أخذت أعدادهم بالتزايد المطرد بتأثير الثورة الصناعية ، كما استخدم لينين نظرية بروليتاريا المدن قاعدة لثورته التي تركزت في المدن بهدف تحقيق سيطرة مباشرة على المراكز الحكومية الرئيسة ، ولقد شن لينين نوعاً من « ثورة الشوارع » ، أما ستالين وأعوانه فقد اعتمدوا النظرية نفسها كلما تطلب الأمر استخدام القوة بالاضافة الى قوات الجيش الأحمر السوفيتي لفرض السيطرة على بلدان أوربا الشرقية .

لقد حاول « ماو » تجربة النموذج الماركسي ـ اللينيني في الثورة إلا ان هذا النموذج لم ينجح ، إذ لم يكن في الصين وقتها بروليتاريا مدن على الطريقة الأوربية لذا غير ماوتسي ـ تونك نقطة الانطلاق الماركسية التقليدية ، وبدلا من استخدام بروليتاريا المدن كقاعدة لثورته ، أعاد ماو صياغة النظرية مستبدلا مزارعي الريف بدلا عن بروليتاريا المدن ، ومع ان النظريتين الشيوعيتين الروسية والصينية تشتركان في الكثير من الأمور إلا ان هناك اختلافا أساسا بينهما ، ولهذا الاختلاف أهمية بالغة ولعله السبب الرئيس في الخلاف المرير القائم بين البلدين الشيوعيين الكبيرين[١٥] .

وكيفما يكن الأمر فموضوع اهتمامنا الحالي هو نظرية « ماو » في حرب التحرير الشعبيـة ، فهي نوع جـديد من الحـرب الثوريـة ، وهي تشمل فيمـا تشمله العمل العسـكري « إلا انها ليست مقيـدة أو محددة ضمن حـدود هذا العمـل العسـكري فقط » .. والجملة الأخيرة هذه مقتبسة من مقدمة كتاب العميد غريفث الذي تابع قائلا : « ... ان هدفها هو تدمير المجتمع القائم ومؤسساته ، والعمل على بناء دولة جديـدة تماماً ... ولهذا السبب تمتلك هذه النظرية خاصية ديناميكية ، وبأبعاد عميقة الجذور لا تتوفر في أكثر أنواع الحروب التقليدية وبصرف النظر عن حجمها[١٦] .

ومع ذلك فهذه النظرية بسيطة جداً حقاً ، إذ يستطيع المرء أن يبدأ ـ شن الحـرب الثورية ـ بمجموعة صغيرة من المؤمنين المتحمسين للنظرية ، والخطوة الأولى فيها هي التثقيف السياسي لنواة متعاظمة من المتعاطفين في الريف ، ويلي ذلك حرب عصـابات أوسع تشن سوية مع حرب سياسية واجتماعية واقتصادية موجهة جميعها ضد الحكومة الطاغية القائمة وضد قواتها المسلحة ومؤسساتها الاخرى ، ومع تعاظم هذه الفعاليات بنجاح ملموس ومطرد فقد يصبح من المناسب استخدام كوادر أكبر من العصابات في تنظيمات أقرب في حجمها وأساليب عملها الى الجيوش النظامية ، وفي النهاية ، يصبح كل « الريف » منهمكاً في الأعمال العدائية المنظمـة والمنضبطة ضـد الحكومـات غير الشيوعية القائمة ، حتى إذا ما ضعفت هذه الحكومات أو انهارت أمكن استبدالهـا بجهاز شيوعي جديد ، وهنـا تدخـل حرب التحـرير الشعبيـة في مرحلة أكثـر رشداً واحترافاً ، أي مَرحلة الهيمنة الشيوعية .

والنقطة المهمة هنا ، بل وصلب بدعة ماوتسي ـ تونـك هي : أن الفـلاحين هم قاعدة القوة ومركزها ، انها ثورة الفلاحين لا ثورة بروليتاريا المدن ، ان العمل الثوري المهم والحاسم إنما يتم بعيداً هناك في الريف وليس في المدن .

لا نحاول هنا استعراض النظرية بتفصيل دقيق ولا الخوض في كيفية تنفيذ حرب العصـابات وادارتها ، إلا أن بعض الاستشهادات المهمة من « ماو » وحوارييـه قد تفيدنا في اعطاء صورة أوضح لهذا النوع من الحروب ، ولعل أكثر ما يستشهد به من اقوال في هذا المجال هو ذلك القول المأثور لماو في أن رجل العصـابات هو «السمكة» التي

تسبح وسط «بحر» أوسع الجماهير ، والأقوال الاخرى التي سنوردها هنا توحي وتشير الى ما يشبه ذلك .

نستشهد هنا بأقوال لماوتسي ـ تونك(*) :

١ ـ في حروب العصابات ، ليس هناك ما يسمى بالمعركة الحاسمة ... ص ٢٥ .

٢ ـ في حروب العصابات ، تلعب مجموعات صغيرة ومستقلة دوراً رئيساً ، ولا يجوز التدخل في نشاطاتها بأكثر مما يجب ، وفي الحروب التقليدية تكون القيادة مركزية مبدئياً ، أما في حروب العصابات فإن ذلك ليس مستحيلاً فحسب بل انه غير مرغوب فيه أيضاً ص ٥٢ .

٣ ـ ليس للتعبئة الدفاعية مكان في عصر حرب العصابات ... ص ٩٧ .

ومن أرنستو شي جيفارا وترجمة الرائد بيترسون المشار إليها أعلاه نستشهد بما يلي :

١ ـ ان رجل العصابات هو ـ أولاً وفوق أي شيء آخر ـ فلاح ثائر ... ص ٧ .

٢ ـ انه مصلح اجتماعي حمل السلاح استجابة لاحتجاج وغضب أوسع الجماهير ضد الحكام الطغاة ... ص ٧ .

٣ ـ ان حرب العصابات هي حرب (قتال) الجماهير ، والعصابات ليست سوى النواة المسلحة ... ص ٦ .

٤ ـ نحن نعتقد ان ثورة كوبا قد أعطتنا ثلاثة استنتاجات أولية حول الثورات المسلحة في أمريكا ، والاستنتاجات هي :

أ ـ تستطيع القوات الشعبية أن تربح حرباً ضد جيش نظامي .

ب ـ ليس على الثوري بالضرورة انتظار الظروف الثورية الملائمة ، بل عليه أن يخلق مثل تلك الظروف بنفسه .

ج ـ في البلدان النامية في الأمريكيتين (الوسطى والجنوبية) تعتبر المناطق الريفية أفضل ساحات المعارك للثورة[١٧] ... ص ٣ ـ ٤ .

ونورد من ثم الاستشهادات التالية من تجربة فيتنام الشمالية وكما وردت في ترجمة كتاب الجنرال جياب « حرب الشعب ـ جيش الشعب » :

١ ـ ... انهـا أولاً وقبل كـل شيء ، حرب الشعب لتثقيف كـل الشعب وتعبئته وتنظيمه وتسليحه ... ص ٢٧ .

٢ ـ ..... في بلد متخلف ومستعمـر كبلدنا (فيتنـام الشمـالية) وحيث يشكـل الفلاحون ، أغلبية السكان فان الحـرب الشعبية هي في الأساس ، حرب فلاحين وتحت قيادة الطبقة العاملة ... ص ٢٧ .

٣ ـ لا توجد في هذه الحـرب جبهة محددة وبوضوح فالجبهة هي حيث يوجد العدو ، انها ـ أي الجبهة ـ ليست في مكان معين بذاته ، فالجبهة في كل مكان[١٨] .

٤ ـ .... يجب تكديس آلاف الانتصارات الصغيرة لتحويلها الى نجاح كبـير ، وهكذا نحول ميزان القوى تدريجيا ، بتحويل ضعفنا الى قوة ... ص ٢٨ .

٥ ـ .... تتحول حرب العصـابات الى حرب حركة ، مع تطوير وتحسين أحوال قواتنا ... وسيتنامى جيش الشعب بإصرار ، ويمر من مرحلة القتال ضد العدو على شكل مجموعات صغيرة بحجم فصيل أو سرية الى حملات أكبر وبمقياس تجبر العدو على زج قوات أكبر تصل حتى الى حجم عدة فرق ... ص ٣٠ .

٦ ـ .... تجاهلنا في سنوات المقاومة الأولى للأسف الشديـد ، أهمية المسـألة الفلاحية ... ولكن هذا الخطأ عولج فيما بعد ... عندما قرر الحزب ... أن يجعل الفلاحين هم السادة الحقيقيين للريف ... ص ٣٣ .

٧ ـ بما ان الفلاحين يشكلون الأغلبية العظمى للسكان ، فانهم يؤلفون القوة الضرورية للثورة ، ولحرب المقاومة ... ص ٤٤ .

٨ ـ ان حرب العصـابات هي حرب أوسع الجماهير في بلد متخلف اقتصادياً ، ويناضل ضـد جيش حسن التدريب والتجهيـز ... هل ان العـدو قوي ؟ إذن يجب تجنبه ... هل هو ضعيف ؟ إذن تجب مهاجمته[١٩] ... وبمزج العمليـات العسـكريـة بالأعمال السياسية والاقتصادية وبدون أي تمييز أو فصل فيما بينها ، لأن الجبهة هي دائماً حيثما يوجد العدو ... ص ٤٨ .

٩ ـ .... كل مواطن هو جندي ، وكل قرية هي قلعة محصنة ، وكل خلية حزبية أو لجنة مقاومة هي هيئة ركن قائمة بذاتها ص ٩٧ .

ليس من السهل تقديم صورة واضحة وكاملة المعنى للكتاب بمجرد الاستشهاد ببضعة جمل متفرقة منه وما اخترناه وقدمناه من أقوال يهدف الى ايضاح ثلاث نقاط مهمة هي :

الأولى : وهي أن نظرية ماو في الحـرب قد وضعت موضع التجربة وانها قد اثبتت نجاحها التام في الصين وفيتنـام (الشمالية) وكوبا والجزائر ، أي اننا لم نعد نتحدث والحالة هذه عن مجرد أفكار تجريدية بل عن حقائق ثابتة وقائمة .

الثانيـة : وهي أن استناد هذه النظرية على قاعدة فلاحية وليس على بروليتاريا المدن أمر في غاية الأهمية ، وسبب ذلك أن معظم مناطق العالم التي لم تزج أو تتورط في الصراع بعد في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ليست مجتمعات مدنية بل مجتمعات فلاحية في معظمها (أي انها الأرض المثالية لتطبيقات نظرية «ماو» في حرب التحرير الشعبية) .

النقطة الثالثة : التي تظهرها لنا تلك الاستشهادات هي مخالفة نظرية (ماو) وبشكل كامل تقريبا لنظرية كلاوزفتج أو النظرية القارية (البرية) حول الجيوش الضخمة المنظمة وكما يبدو واضحاً في المقارنة التالية :

أ ـ اشترط كلاوزفتـج « تدمير قوات العدو ... وبوسيلة واحدة هي الاشتبـاك (المعركة) فقـط ... والاشتباكـات العامـة والكبرى وحـدها هي التي ستحقق نتـائج ضخمة ... والنتائج ستكون أضخم ما تكون في معركة كبيرة واحدة ... » .

ب ـ أما طبعة عام ١٩٥٥ من أنظمة الخدمة السفرية في الولايات المتحدة فترى أن « ... الهدف النهائي ... هو تدمير قوات العدو المسلحة ... » .

ج ـ أما ماوتسي ـ تونـك فيرى أن « ... مجموعات صغيرة تعمل مستقلة عن بعضهـا البعض ، تلعب دورا رئيسا ... » و « ... ليس هنـاك شيء اسمـه معـركـة حاسمة ... » .

د ـ كما يقول جيفارا ، ان « ... أراضي الريف هي أفضل ساحات القتال ... » .

ومن المهم أن نلاحظ هنا ، انه في الوقت الذي تعد فيه الستراتيجية المعتـادة للنظرية القارية أو لنظرية كلاوزفتـج هي سـتراتيجية تعاقبية ، فان مركز الثقل في نظرية

(ماو) يستند على مفهوم تراكمي لا تعاقبي ، وقد يكون هذا هو أحد أهم الاختلافات فيما بين النظريتين ولكنه قد يكون الأصعب علينا هو في تحديده وضبطه في التطبيق . فدور رجل العصابات في التأثير الكلي للعملية هو دور تراكمي ، وكما قال (ماو) ، فليس في حرب العصابات شيء كالذي ندعوه بـ« المعركة الحاسمة » أما الجزء التعاقبي في نظرية (ماو) فهو الجزء السياسي والموجه بكل وضوح نحو هدف الستراتيجية التعاقبية والذي تعمل الستراتيجية الاخرى ، أي الجزء التراكمي من حرب العصابات في اسنادها ، وكي نعبر عن ذلك بطريقة اخرى نقول : ان المعضلة هي في : كيف يمكن أن نضع ستراتيجية تراكمية في مقابل ستراتيجية تعاقبية ؟ أو هل يجب علينا أن نتولى بأنفسنا تطوير نوع من الستراتيجية التراكمية لمواجهة الستراتيجية التعاقبية ؟ أي لمواجهة حرب العصابات .

ولتقديم صياغة اخرى دعنا نستعد مقولة الجنرال ايزنهاور التي استشهدنا بها آنفاً ، وهي « ... بهذا الصدد (أي اهتمامات المستر شرشل السياسية) فاني أتعاطف معه بشدة ، ولكني ... كنت حريصاً بشكل خاص لاستبعاد مثل هذه الاعتبارات ... » ومن ثم نضع هذا الاتجاه الكلاسيكي في التفكير لجندي غير سياسي في مقابل ما يقوله ارنستو شي جيفارا « ... رجل العصابات هو ، أولاً وفوق أي شيء آخر فلاح ثائر ... انه مصلح اجتماعي ... » أو مع أقوال الجنرال جياب « ... بمزج العمليات العسكرية بالأعمال السياسية والاقتصادية » .

سيكون من المفيد حقاً لو تيسر الوقت لبعض الباحثين ليقابل ما بين كلاوزفتج و (ماوتسي ـ تونك) في بحث شامل ودقيق ، ولعله قد يكون من المفيد أيضاً المقابلة ما بين معتقداتنا الحالية مع تلك التي لماوتسي ـ تونك وجيفارا ، فقد نتعلم من كل ذلك أو نصل الى أفضل طريقة لمقاومتها .

لقد أصبحت نظرية (ماو)[٢٠] حقيقة قائمة وتجذرت مسلماتها في الواقع الذي صممت لأجله وذلك أمر مهم بحد ذاته ، وعلينا إدخاله في حساباتنا في أي بحث أو مسعى عن نظرية عامة في الستراتيجية .

(١) تظهر بعض هذه الأفكار وباشكال مختلفة في مقالة لي في مطبوعات المعهد البحري الأمريكي (المجلد ٨٣ ـ عدد ٨/آب/١٩٥٧ ص ٨١١ـ٨١٧ .

(٢) جوليان كوربيت : كاتب انكليزي له دراسات عن الجوانب الدبلوماسية والعسكرية للحروب الكبيرة في عصر السفن الشراعية . اهم كتبه ، بعض المبادىء في الستراتيجية البحرية ـلندن ١٩١١ ، وقد خصصه لبحث نظريات ماهان ـ راجع رواد الستراتيجية الحديثة ـ الكتاب الرابع ـ القسم الخامس ـ الفصل (١٨) .

(٣) الفريد ثاير ماهان : ابن دينس ماهان الاستاذ في الأكاديمية العسكرية الأمريكية (ويست بوينت) ، التحق بجامعة كولومبيا ثم انتقل الى الأكاديمية البحرية في (انابوليس) وخدم ضابطاً بحرياً في الحرب الأهلية الأمريكية ، ويعد كاتباً ومؤرخاً شهيراً للغاية كما انه من اكبر من اثروا في الستراتيجية البحرية واشهر كتبه ، تاثير القوة البحرية عبر التاريخ ما بين ١٦٦٠ ـ ١٧٨٣ ، . وهو اول ثلاثة مجلدات في تاثير القوة البحرية صدر آخرها في (١٨١٢) وتعد بمجموعها من اشهر ما كتب في الموضوع المرجع السابق ـ الكتاب الرابع ـ القسم الخامس ـ الفصل ١٧ .

(٤) الجنرال جيمس وولف (١٧٢٧ ـ ١٧٥٩) اصغر الجنرالات الانكليز سناً على الاطلاق ، قاد الهجوم البرمائي في كويبك وتوفى ساعة انتصاره (١٧٥٩/٩/١٨) . راجع قاموس الشخصيات العسكرية (Military Biography) تأليف وندرو ، وماسون ـ ساوثمبتن ـ انكلترا .

(٥) في كتاب ، الفكر العسكري في بريطانيا ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ ، مطبعة روتجرز ١٩٦٦ ، خصص مؤلفه هنكام ملحقاً لمكانة دوهيه قال فيه ، ليس لدوهيه اي تاثير في تاطير النظرية البريطانية للقوة الجوية ، . وبكل تاكيد فإن كلا من (ترينجار) في بريطانيا و (ميتشل) وبعده (لي مي) من الولايات المتحدة كانوا منظرين كباراً للنظرية الجوية ، واستشهدت بدوهيه في كتابي هذا لأنه الرجل الذي وضع افكار كتابه بوضوح واعتقد ان له تاثيرا كبيرا في الولايات المتحدة ـللمزيد عن دوهيه راجع الكتاب الرابع من رواد الستراتيجية الحديثة ـ الفصل العشرون .

ومارشال الجو هوك ترينجار (١٨٧٣ ـ ١٩٥٦) ـ الأب الروحي ومؤسس القوة الجوية الملكية واول رئيس اركان لها ، يُعَد هو ودوهيه وميتشل خير من تسلم قيادة القوة الجوية . اوجد ترينجارد كل المؤسسات الجوية المهمة لتاكيد استقلالها عن الجيش والبحرية ـ موسوعة التاريخ العسكري الأمريكية ص ٩٩٤ وقاموس جينز للطيران .

وليم ميتشل ـ عقيد جو امريكي قاد قوة جوية حليفة من (الولايات المتحدة وفرنسا وايطاليا والبرتغال) علم ١٩١٨ ثم عين قائداً لطيران الجيش وله ثلاثة مؤلفات مهمة في الموضوع ـ الكتاب الرابع ـ رواد الستراتيجية الحديثة وموسوعة التاريخ العسكري الأمريكية ص ٩٨٢ (بالانكليزية) .

جنرال الجو ، لي مي Lemay ، امريكي قاد قوة القاصفات العشرين في الهند والـ(٢١) في جزر الماريانز في المحيط الهادي ـ موسوعة التاريخ العسكري الأمريكية ـ ص ١١٨٣ ـ The Encyclopedia Of Military History (From 3500 Bc) By E. Dupuy and t. Dupuy. Pub. Harper and Row - 1970.

(٦) نشر هذا الكتاب اصلاً بين عامي ٢١ ـ ١٩٢٧ وترجم عن الايطالية من قبل دينو فراري ونشر بالانكليزية عن دار "Coward - McCann" في نيويرك عام ١٩٤٢ .

(٧) يرى الجنرال اندريه بوفر في كتابه مدخل الى الستراتيجية العسكرية ان مصطلح (الدفاع الوطني) تعبير مبهم لا ينطبق على شيء ولا يفيد إلّا في بلبلة الأفكار ، ويرى بالمقابل ان مصطلح الستراتيجية الشاملة اكثر وضوحاً ـ ص ٤٢ من الترجمة العربية لأكرم ديري وهيثم الأيوبي ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٠ .

(المترجم)

(٨) ويمكن هنا أن تترجم بمعنى «السيادة» الجـوية ، او النفوذ الجـوي .. حسب السياق .

(الناشـر)

(٩) لا يمكن التنبؤ بالمدى الذي ستحدثه التكنولوجيا في نظريات الحـرب ولكن المؤكد ان ذلك سيكون كبيرا جدا ولعل نظرة واحدة الى التطور التكنولوجي في ايامنا هذه تكفى للتدليل على ذلك فهي اي التكنولوجيا جعلت كل شيء ممكناً ، وحرب النجوم القائمة الآن دليل آخر .

(المترجم)

(١٠) خلت الطبعة التي صدرت في شباط عام ١٩٦٢ من انظمة الخدمة السفرية (الامريكية) من هذا النص مع انها كانت ـ بالمناسبة ـ افضل الطبعات صياغة من بين جميع سابقاتها .

(١١) CRUSADE IN EUROPE

(١٢) يشير ايزنهاور هنا الى اضخم صراع ستراتيجي في كل تاريخ الحـرب بين ثلاثة من الاطراف التي يفترض انها كانت متحالفة مع بعضها في الحرب العالميـة الثـانية من أجل اسقاط هتلر .

ا ـ كانت الولايات المتحدة تريد تحرير فرنسا واوربا من هتلر واضعاف المانيا بشكل يمنعها من اشعال حرب اخرى وقد اعد مور جنتاو (يهودي وزير المالية والمستشار المقرب الى روزفلت) خططاً عديدة لتنفيذ ذلك ، بل انهم فكروا حتى بتصفية من ينجو من الضباط الألمان . كما كانت الولايات المتحدة تريد ومن طرف خفي القضاء على الامبراطورية البريطانية والحلول محلها .

ب ـ أما بريطانيا فكانت تريد القضاء على الهتلرية وابقاء المانيا قوية وقادرة على الصمود بوجه الشيوعية ، لذا عارض تشرشل تنفيذ عملية غزو اخرى في جنوب اوربا واصر على الاكتفاء بالانزال في نورمندي وتوجيه كل جهد آخر نحو ايطاليا وربما الى هنغاريا . كان يريد تهيئة اوضاع مناسبة لتحطيم الاتحاد السوفيتي .

ج ـ أما ستالين فكان يعرف طبيعة الصراع بشكل افضل من الجميع وكيف انه سيتحول الى صراع مميت بينه وبين الغرب لذا لم يأبه لمصير المانيا بقدر اهتمامه بترتيب ما يناسبه من اوضاع في اوربا الشرقية (الستار الحديدي) ويقول مونتغمري ان ستالين كان قادراً على احتلال برلين عام ١٩٤٣ لو اراد إلا انه آثر الاتجاه نحو شرق اوربا وسعى بقوة من اجل تشتيت جهود الحلفاء .

وقد عبر الماريشال مونتغمري عن ذلك بقوله ان جوهر الصراع كان في فشل التعـامل مـع الستراتيجيـة والستراتيجية العليا ، فالأولى عسكرية اما الثانية فترقى الى السياسة العليا للدولة وكان اطراف الصراع الثلاثة برايه هي : واحد يملك ولا يفهم (روزفلت) وآخر يفهم ولا يملك القدرات الكافية (شرشل) اما الثالث فهو يفهم ويملك (ستالين) لذا كان الرابح الأكبر في تلك الحـرب .

(المترجـم)

(١٣) « في الحـرب » ـ كلاوزفتـج ـ الكتاب الرابع ـ ص ٣٣٤ ـ الترجمة العربية ـ اكرم ديري والهيثم الايوبي .

(١٤) هذا التنظيم معمول به وينطبق على الولايات المتحدة .

(المترجم)

(*) هكذا ترجمت الكلمة الى الانكليزية .

(١٥) قد يكون ذلك هو اساس الاختلاف العقائدي بين الاتحاد السوفيتي والبانيا وكذلك اساس الصعوبات التي نشات في كوبا التي اتجهت التجربة الشيوعية فيها نحو الاتحاد السوفيتي اقتصاديا و باتجاه الصين عقائديا .

(١٦) العميد المتقاعد صموئيل غريفث ، « ماوتسي ـ تونـك في حرب العصـابات » ـ دار بريجر ـ ١٩٦١ ص ٧ .

(*) هذه الاقوال ترجمها الى الانكليزية (غريفث) .

(١٧) من كتاب ، جيفارا في حرب العصابات ، ترجمة الرائد بيترسون - دار بريجر عام ١٩٦١ .

(١٨) تالو بيجو دومورجيه أول مدير للاكاديمية البحرية الفرنسية ، في البحر ... لا يوجد مسرح للمعركة يجب الاحتفاظ به ، كما لا توجد مواقع للاستيلاء عليها ، - رواد الستراتيجية الحديثة - الكتاب الرابع ص ١٧٠ .

المترجم

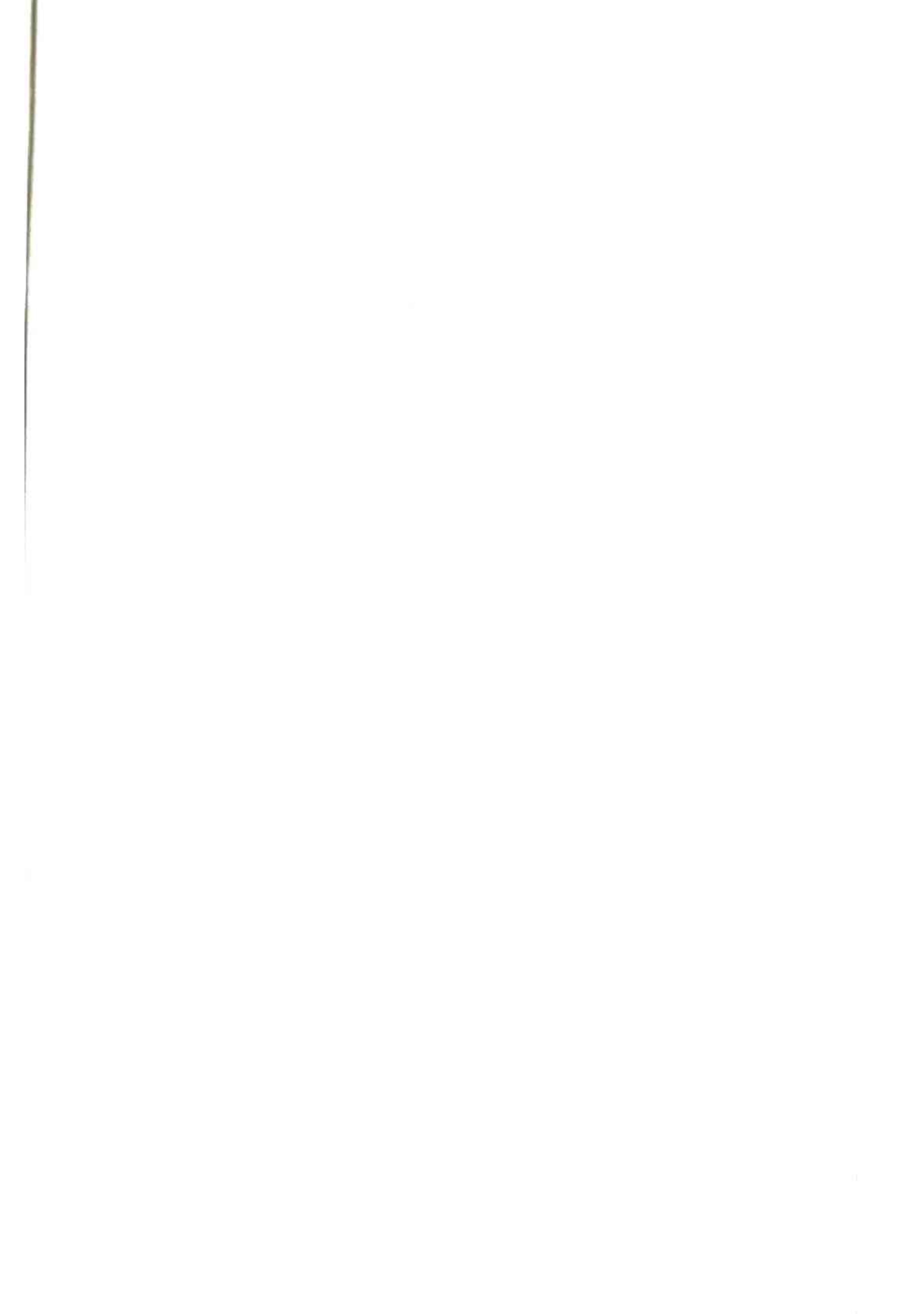
(١٩) هذا المفهوم ماخوذ كلياً من النظرية البحرية الفرنسية ، لا تخجل من مهاجمة الضعيف ، ولا تخجل من الفرار امام القوي ، - المرجع السابق ص ٢٣٥ .

(٢٠) تحدث ماركس عن ثورة بروليتارية لا تبقي ولا تذر في حرب صراع الطبقات ، إلا ان لينين لم ينتظر نضوج طبقة عمالية ثورية بالحجم الكافي لاعلان ديكتاتورية الطبقة العاملة التي فكر بها ماركس ، وشن (لينين) ثورته بطبقة عمالية ضعيفة نوعاً ما ، اي وكما قال جيفارا ، لم ينتظر توفر الظرف الثوري ... بل خلقه ، وماوتسي - تونك هو الآخر والتزاماً بماركسيته ولما لم يجد امامه سوى الفلاحين لذا جعلهم اداة الثورة وهدفها ، هذا من ناحية ، اما من الناحية الاخرى فان التعارض الاساس ما بين نظرية ماو والنظريات الاخرى ليس في «التراكمية» أو «التعاقبية» كنمطين سوقيين لأن نظرية (ماو) قد استخدمت هذين المفهومين كما استخدمتها النظريات الاخرى في الحرب العالمية الثانية إلا ان الاختلاف كان في عدم اعتماد نظرية (ماو) على القوات المسلحة النظامية كاداة رئيسة في الكفاح من أجل تدمير النظام القائم ومن ثم بناء نظامٍ جديدٍ مختلفٍ جداً .

المترجم

الفصل السادس

تحديدات النظريات القائمة



لكل من النظريات الغربية الكبرى الثلاث في الستراتيجية ، - وسنترك نظرية ماو في الوقت الحاضر على أن نعود إليها فيما بعد - قدر جوهري وكبير من الصحة والفاعلية ولها (أو يمكن أن يكون لها) توافق وانسجام مع الواقع في ظروف بعينها والى الحد الذي يجعلها نظريات عملية وواقعية . ومن الواضح انه وبسبب من هذه الفاعلية ، والقابلية العملية فقد ثارت مناقشات مفيدة وملفتة للنظر بل وحتى حامية أحياناً ما بين مؤيدي كل من هذه النظريات . فالطيار مثلا يعرض ويقترح منهجه في العمل وهو على ثقة تامة من صواب حجته مفترضا ان عمله هو الأفضل ، إلّا أن الجندي وفي الوقت نفسه والاسلوب نفسه يقدم آراءه ومقترحاته وهو على ثقة من ان اجاباته هي الأفضل . ويقف البحار وسط كل ذلك ، ناظراً الى الجندي والطيار بنوع من الأسى والتشاؤم وهو غير قادر على أن يتفهم السبب في عدم ادراك أي منهما على أن اجاباته هو ، هي أفضل الاجابات الثلاث .

وكل هذه بلا ريب مبالغات واضحة مع ما يحدث في الواقع ، ولكننا قدمناها هنا لترشدنا الى ما يبدو انه المصدر الرئيس للصعوبات التي يواجهها الفكر العسكري في العمل في الوقت الراهن .

المشكلة عموماً هي ، ان كل هذه النظريات الغربية الثلاث قد قبلت عن وعي وادراك أو بدونهما من قبل مؤيديها كنقاط انطلاق فكرية ، اعتبرت ضمنياً كنظرية عامة تامة في الحرب واستنادا الى ذلك من البديهي أن نفترض ان نمط التفكير هذا أو ذاك ينبغي أن يكون السائد أو المسيطر في أي موقف حربي ، إلا أن وجود تلك النظريات الثلاث المتعارضة في مواجهة كل موقف سوقي يفرض نفسه أو ينشأ لسبب أو آخر ، سيجعل من الاصطدام ما بين الأفكار المعروضة أمراً شبه محتوم .

والنقطة الجوهرية في الأمر كله هي انه ما من واحدة من النظريات الثلاث آنفة الذكر هي نظرية عامة (قائمة بذاتها) في الحرب حقاً . صحيح انها نظريات محددة وكل منها تعد صالحة ومشروعة ومؤثرة في ظروف محددة بعينها ، إلا انها سرعان ما تفقد هذه الفاعلية والمشروعية حالما تختلف أبعاد ومعطيات الواقع الذي كانت تعمل فيه (أو من خلاله) عن الواقع «المثالي» الذي تنبأت به أو قامت النظرية على أساسه

ضمنياً .

وعلى سبيل المثال ، لنتذكر قضية القاصفات السوقية خلال الحـرب الكورية في أوائل الخمسينات من هذا القرن ، لقد ادعى معارضـو النظـريـة الجويـة وقتها أن الحـرب الكورية قد أثبتت انه قد أعطي للقاصفات السوقية دور مبالغ فيه للغاية ، أما مؤيدو النظـرية الجوية فقد أعلنوا أن الأمر على العكس من ذلك تماماً ، وان الحـرب الكورية بجملتها كانت حرباً خاطئة ونشبت في مكان ووقت خاطئين أيضاً ، والملاحظ ان الجميع قد أغفلوا وعن عمد جوهر الموضوع والقضية المـركزيـة فيه والتي هي : ان القاصفات السوقية قد كانت آنذاك وكما هي عليه الآن ، قادرة تماماً على انجاز مهماتها ولكن الخطأ (التعثر) الوحيد كان في عدم توافق أو تزامن الفرضيات مع الواقع ، لقد كانت الحـرب الكورية حرباً حقيقية وواقعية بما فيه الكفاية ، إلا أن الفرضيات نفسها هي التي لم تكن صحيحة أو بمشروعية كافية بالنسبة للواقع القائم وقتها بشكل خاص ، أما مسألة كون الحـرب الكوريـة «صحيحة» أم «خـاطئة» فـأمر لا عـلاقة له البتـة بموضوعنا هنا .

لا توجد حتى الآن نظرية عامة مقبولة ومعترف بها في الســتراتيجية ، لأن مثل هذه النظـرية لابد أن تكون قابلة لتلبية أية متطلبات ملحة ، وأن تكون قابلة للتطبيق في أي من مواقف الصراع وفي أي زمان ومكان ، كما يجب أن تكون قابلة للتطبيق تحت أية قيود أو تحديدات قد توجد حقيقة أو قد تفرض عليها ، كما أن عليها ان تستوعب وضمن اطارها المفاهيمي حقـائق المفاهيم الاخـرى المحددة والقـائمة لسـتـراتيجية الحـرب والمتمثلة بالنظـريات القارية والبحرية والجوية اضافة الى نظرية (ماو تسي -تونك) التي أثبتت صحتها ضمن تحديدات فرضياتها . ومع هذه العمـومية المفـروضة كـاحدى متطلبات مشروعية أو صوابية النظـرية فيجب أن لا تكون هذه ـ أي النظـرية العامة ـ وفي الوقت نفسه ضبابية وغير محددة الشكل وبحيث لا تصلح أو تعجز عن تشكيل قاعدة أو (أساس) لفكر منضبط في التقيـيم العملي لخطـة سـتراتيجيـة مصممـة لمواجهـة موقف حقيـقي خـاص .

هناك في الأساس طريقتان لبناء النظـرية ، أية نظرية وما على المرء إلا أن يدفع

ثمناً لكل منهما :

الطريقة الأولى : وفيها يستطيع المرء بناء النظرية من عناصر تخلو من الحشو والتكرار الفارغ ، أي يتمكن المرء من بنائها من بيانات منطقية ومترابطة ووثيقة الصلة ومحكمة بشكل واضح ، وعلى سبيل المثال : فقد يبدأ أحدهم القول وفقاً للطريقة هذه .. « إن القوات العسكرية الأقوى ستكون هي المنتصرة دائماً » وهذا القول تكرار وحشو فارغ ولا معنى له ، لأن «الأقوى» يعرف دائماً بأنه «القوة المنتصرة» ؛ والثمن الذي يدفعه المرء لمثل هذا النظام (الطريقة) هو انها غير قابلة للتطبيق على أي موقف حقيقي عرفناه ، أي انها تتحقق من الفراغ (التجريد) وستظل كذلك ما لم ، وحتى يتوفر لها الموقف المثالي الذي بنيت عليه أو تنبأت به حقاً ، ثم توضع النظرية وتخضع للفحص في مثل تلك الظروف المثالية ، والآن لنتأمل بقصد التوضيح في الحرب العالمية الثانية في أوربا ، والتي نعى بعدها المتشككون نظرية دوهيه بل واعتبروها فشلاً كاملاً بينما أعلن مؤيدوها انها ـ أي نظرية دوهيه ـ لم تمنح أبداً فرصة كافية لتجربتها بشكلها الكامل لأن القوة الجوية قد أشغلت أو صرفت الى أمور ثانوية لا أهمية لها ولم تسمح لها باستغلال كامل قدراتها وفاعليتها .

والطريقة الثانية : هي في بناء نظرية تشرح وتفسر فقط ، الحقائق المبينة والمعززة بالتجربة العملية والتي حدثت فعلاً ، وهذه هي الطريقة التي اعتمدتها النظريتان القارية والبحرية ولكن بصيغ اخرى نوعاً ما ، والثمن الذي يدفعه المرء ، هو ان مثل هذه النظرية لم تتحسب بالضرورة لما توقعت حدوثه إلّا انه لم يحدث ، عدا عن انها غير قابلة للتطبيق على احداث مستقبلية بشكل حرفي وجامد .

ان ما نحاوله هنا هو التأمل وافتراض نظرية عامة تعتمد وتتواءم وهاتين الطريقتين ، وتدعو الحاجة طبعاً الى العمل المتواصل في المستقبل لاكتشاف اية أخطاء أو لسد أية ثغرات في اية نظرية عامة . ولكننا ان أردنا في الوقت الحاضر لنظرية عامة أن تخلو من الحشو والتكرار أو من تحديدات أو ضغوط الخبرات السابقة فلا بد أن تكون نظرية ذات أفق وقدرة تأملية واسعتين للغاية . والبحث المتواصل والتأمل الذي سيقدمه العمل المستقبلي سيساعد على تشذيب كل ما هو غير مناسب في النظرية العامة هذه ،

وتحويره وتبديله وتصحيحه وحذفه ، واني لأتجرأ هنا ، الآن ، واقترح نظرية عامة لمرور وقت طويل دون أن يتقدم أحد ما ليقوم بالخطوة الأولى ويتولى عرض الأفكار التي قد يستطيع الآخرون نقدها أو رفضها أو تطويرها نحو الأفضل .

المفهوم الوحيد المعروض حتى الآن والذي يمكن التسليم بأنه قد اقترب كثيراً من تلبية الكثير من متطلبات النظرية العامة التي نحن بصدد صياغتها هو مفهوم ليدل هارت في « التقرب غير المباشر »[١] ، فقد ناقش ليدل هارت هذا المفهوم (الذي ظهر في العديد من كتاباته عدا ما خص به هذا المفهوم مباشرة من بحوث) كاحدى صور النظرية القارية في المقام الأول ، ومع ان ليدل هارت قد رفض وباصرار ، العديد من بديهيات ومعتقدات كلاوزفتج الأساس ، وقد كان مسلك ليدل هارت العام في تناول الموضوع في الحقيقة يهدف الى وضع نظرية التقرب غير المباشر على أساس النظرية القارية في الستراتيجية ، مقترحاً اعادة صياغتها وفقاً لمفهومه الجديد هذا ، كما وسع في الوقت نفسه وبشكل مدروس مجال وامكان تطبيقه بتمديد مفهومه الى ما هو أبعد من الميدان العسكري الصرف ، وذلك بادخال بعض الفعاليات والأنشطة الاجتماعية الأكثر بروزاً والتي لها علاقة بالحرب ، كما أدخل العامل النفسي للحرب بشكل مدروس ودقيق ضمن مفهومه وكجزء عضوي ومكمل له ، كما أدخل ولو بصورة أقل دقة ولكن ضمنياً وبشكل لا يمكن إغفاله ، الفعاليات الاقتصادية والسياسية للصراع ضمن مفهوم التقرب غير المباشر ، وتطوي الأمثلة التاريخية التي يستشهد بها وبشمولية واسعة الأفق ، زمان ، ومكان ، ونطاق وسمات مختلف جوانب الابداع الانساني في الحرب ويقترح بالنتيجة ان على الستراتيجي أن يعمل كل ما بوسعه لافقاد العدو توازنه واجباره على بذل الكثير من طاقاته من أجل استعادة هذا التوازن ، ويعتقد ليدل هارت ان احتمالات تحقيق النصر ستزيد كلما وصل افقاد العدو لتوازنه درجة يتعذر عليه معها استعادته بل ويمكن أن يتحقق النصر حتى بدون أي قتال ، وان فكرة ـ لا قتال ـ هذه تكفي لوحدها لأن تجعل كلاوزفتج ينتفض في قبره ولا نعجب والحالة هذه ، إذ نرى أن الكثيرين من الكتاب والمفكرين العسكريين قد هاجموا وبسطحية فجة ـ بل

ورفضوا - بشكل بات آراء ومعتقدات ليدل هارت هذه[1] . . . .

لم يتناول ليدل هـارت صراحة كلا من النظريتين البحرية والجوية في الحـرب كما لم يشر إليهما في أي من مناقشاته أو كتاباته التي أستطيع تذكرها الآن ، ومع ذلك فيبدو لي أن مفهومه في التقرب غير المباشر قابل للتطبيق في كلتيهما وبنفس أبعاد وحدود تطبيقه في النظـرية القارية عدا عن أنّ التقرب غير المباشر يعد في الحقيقة سمة أصيلة وأساساً في النظـرية البحرية في الحـرب . ومن المفيد ملاحظة ان نظرية ليدل هـارت وبما هي عليه من براعة وحذق هي أكثر انفتاحاً وأكثر تقبلاً لمفاهيم (ماو) منها لمفاهيم كلاوزفتـج .

يبدو لي مع ذلك ان هناك خللاً ما ، في مفهوم التقرب غير المباشر وكما هو مسلم به حالياً ، وان عدم تكامل المصطلحات المناسبة حول «الستراتيجية» بـوصفها نـظاماً فكرياً .. يحد من تفهم واستيعاب « اللا مباشرية Indirectness » فهو وبالصورة التي هو عليها الآن مفهوم بلا شكل أو بنية واضحتين . ونعني بذلك انـه مفهوم غـامض وفضفاض وضبابي وغير محكم ويصعب تطبيقه المدبر (المدروس) على أي موقف حقيقي بعينه ،و «اللا مباشر » بذاته أو لذاته ليس بالضرورة بالشيء الذي نسعى إليه ،كما لن يؤدي بالضرورة الى أية نتيجة سوى التشتت .

وليس هذا بالتأكيد هو ما قصد إليه ليـدل هـارت ، ويستطيـع المرء أن يـرى وبوضوح نمطاً غير محكم الترتيب لأفكار ليـدل هـارت أو لما يمكن أن يسمى بهـدف اللا مباشرة ، إلّا أنه من الصعب التأكد - بلا ريب - ان الشكل الذي قد يفهمـه أو يتصوره المرء لهذا المفهوم هو نفسه الذي انتج بعضاً من أهم كتاباته الرائعة في العقود الأربعة أو الخمسة السابقة .

ومن المناسب هنا ايضاح نقطة واحدة وهي ان هذا النقد لنظرية التقرب غـير المباشر إنما ينطلق من احترام عميق جداً لهذه النظـرية كأفضل نظرية مدركة وهادفة

---

(١) ان احد العسكريين المحترفين الذين احجموا عن مهاجمة ليدل هـارت هو الجنرال الفرنسي اندريه بوفر صاحب المؤلفات العسكرية العديدة ، ويمكن ان نجد في كتابه « مدخل الى الستراتيجية » الصادر عام ١٩٦٥ مفهوماً مختلفاً الى حد ملفت للنظر بل ومتطور لمفهوم ليدل هـارت في « التقرب غير المباشر » . وقد ترجم كتاب بوفر هذا الى العربية مرتين الاولى من قبل اللواء الركن المتقاعد عبدالمنعم المصرف تحت عنوان « مدخل الى السوق » والآخر من قبل الهيثم الايوبي « مدخل الى الستراتيجية » وصدر عن دار الطليعة .

مسلّم بها حتى الآن . ان مزيج المصالح في هذه النظـرية من جهة وصعوبة مناقشتها بالاسلوب المعتاد في الحوار من جهة اخرى ، أو تطبيقها على مواقف واقعية أو نظرية (مفترضة) فإن هذين العاملين هما في الحقيقة الحافز الأكبر الذي دفعنا الى ادخال هذه النظـرية ضمن محتويات هذا الكتاب .

أوشكنا في هذه المرحلة من الدراسة على التوغل باتجاه مفهوم آخر ، والقيام بذلك في مناقشة تجريدية آملين أن يكون ما نقوم به خطوات منطقية ، وسواء أكانت نتيجة كل ذلك هي التوصل الى نظرية عامة في الستراتيجية كبديل عن « التقرب غير المباشر » أم انها - أي النتيجة - ستكون مجرد توضيح وامتداد لها فلست على ثقة تامة من ذلك حقاً ، إلّا أني أدرك تماماً بأنها لن تتعارض معها على أية حال وبما أن نظرية ليدل هـارت صحيحة ومشروعة بشكل عام فإن بيانات وأسس أيـة نظريـة عامـة يجب أن تكون منسجمة مع نظرية ليدل هـارت في التقرب غير المباشر .

وقبيل المضي بعيدا لا بد لنا من مناقشة الجملة الأخيرة ولو للحظة ، لأنها توضح الفـرق ما بـين الحـرب والفعاليـات الاجتماعيـة الاخرى ، سيـاسية كـانت هذه او اقتصادية ، ولقد أوضحنا في الصفحات السابقة ان النظـريات الأربع - المعترف بها - في الستراتيجية أي البحرية والجوية والقارية ونظرية ماو ، هي ليست نظريات عامة ، وأكثر من ذلك فانها نظريات محددة - مقيدة - وقد فـرضت هذه التحـديدات بسبب الفرضيات المختلفة الكامنة ضمناً في كل منها (وعلى سبيل المثال فان النظـرية الجوية مقيدة بالفرضية الضمنية في أن التدمير يمكن أن يعادل السيطرة كما ان النظـرية القارية مقيدة بالفرضية القائلة بأن الجيوش ستشتبك بمعركة كبيرة وحاسمة ... الخ) .

إلّا أن نظرية ليدل هـارت وبصرف النظر عن مدى عدم اكتمالها تخلو من مثل هذا النوع من الفرضيات المقيدة ، كما انها مشروعة ومؤثرة بشكل عام عدا عن ان أي اعلان أو بيانات اخرى عن نظرية عامة اخرى يجب أن تنسجم معها .

فإن لم تنسجم أية نظريتين في الستراتيجية فيما بينهما فلن تكـون أيٌّ منهما عندئذٍ نظرية عامة ومشروعة ، ولا بد من وجود ضعف محدد في مكان ما من بنيتيهما وينبغي اكتشاف مثل هذه التحديدات وتشخيصها مقـدماً لاحبـاط محاولات تـطبيق

النظرية في مواقف يتعذر عليها العمل فيها ، أو في مواقف لا تتلاءم فيها الفرضيات الأساس مع حقائق أي موقف فعلي قائم .

لعلّ ميدان دراسة الستراتيجية كموضوع اجتماعي هو الوحيد من بين ميادين النظم الاخرى الذي يظل فيه ذلك حقيقة (وليست العلوم الطبيعية وثيقة الصلة أو مناسبة للمقارنة هنا لأنها تتعامل مع حقائق يمكن التنبؤ بها مقدماً ، أما العلوم الاجتماعية فتتعامل مع الناس وليس مع الأشياء ، إذ توجد هنا صعوبة ذاتية أساساً لانعدام القدرة على التنبؤ المسبق عندما يتعلق الأمر بالانسان) ويمكن ان تتعايش النظريات العامة غير المنسجمة فيما بينها في جميع النظم الاجتماعية الاخرى ، إذ لا يقع في ميادين النشاط الانساني تلك أي تضارب مفروض ، وفي الواقع العملي اليوم فهناك مثلاً العديد من النظريات الاقتصادية العامة المتعارضة ، كما ان هناك نظريات سياسية أو اجتماعية ليست منسجمة هي الاخرى ، وهناك كذلك نظريات أو معتقدات دينية ليست على وفاق فيما بينها ، والهيكل العام لتلك النظريات العديدة في تلك الميادين ، وكذلك أفكارها وانجازاتها ليست منسجمة أو متوافقة فيما بينها ، كما لا تنسجم أفكار الاقتصاد الحر (الرأسمالية) والاشتراكية والشيوعية هي الاخرى ، والميادين الحقيقية التي تتضارب فيها هذه النظريات مع بعضها البعض الآخر هي ميادين بالغة العنف والفوارق ، إلاّ أن مثل تلك المصادمات لا تبطل صحة ومشروعية هذا أوذاك من المشاريع المتنافسة ، بغض النظر عما تكون عليه آراؤنا الشخصية في كل منها ولنتذكر على سبيل المثال مقدار الاختلاف ما بين جون لوك[٢] وكارل ماركس من الناحية السياسية وكذلك التعارض الشديد ما بين المسيحية والشنتو (ديانة اليابان) والالحاد ، إلاّ أنه ورغم كل ذلك فقد قامت تلك النظريات العامة وما زالت ، وهي ناشطة في فعالياتها وتطبيقاتها الخاصة بها في ميادين النشاط الانساني وكل منها تتمتع بقدر من

(٢) جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) ولد في سومرست ـ انكلترة . اهتم بالطب والفلسفة متأثراً بديكارت واصدر علم ١٦٧١ اول مؤلفاته ، مقال في العقل الانساني ، ويعد أهم كتبه كان معظم اهتمامه منصباً على نظرية المعرفة حيث حاول المزج ما بين الميتافيزيقيا والعلوم الطبيعية ـ راجع الموسوعة الفلسفية المختصرة ـ المكتبة الانجلو ـ مصرية علم ١٩٦٣ ـ ص ٢٧٠ ـ ٢٧٥ .

المترجم

الصلاحية والمشروعية بما يبدو انه كاف تماماً بنظر معتنقيها .

والسبب الذي جعل ذلك ممكناً ، هو أن تلك النظـريات العامة في فروع العلوم الاجتماعية الاخرى هي «عامة» فقط في حدود الحضارة التي تعمل وتنشط داخلها أما عندما نتناول معضلة ستراتيجيات الحرب فسنجد انها ؛ وعلى وجه التحديد بيثقافيه[٣](Inter Cultural) ، وهكذا بالتالي يظل معنى «العمومية» عند مناقشة نظريات الستراتيجية أكثر اتساعا مما هو عليه في السياسة والاقتصاد وما شاكل ذلك ، كما أن النظريات العامة في العلوم الاجتماعية ليست بالضرورة نظريات كونية (Universal) إلا أن النظريات العامة للستراتيجية يجب أن تكون كذلك[٤] كما يجب أن تكون قابلة للتطبيق على أي موقف حربي سواء أحب ممارسو الستراتيجية ذلك الموقف أم لا طالما ظل هناك احتمال أن يحب «الخصم» ذلك الموقف ، بل وقد يكون قادراً على زج (فرض) ذك الجزء غير المرغوب فيه في الصراع ، لذا توجب أن تكون الفرضيات التي تستند إليها النظريات العامة في الستراتيجية فرضيات شمولية (كونية) بحق وتتسق زمنياً (تتزامن) مع الواقع بغض النظر عما يمكن أن يؤول إليه هذا الواقع .

يبدولنا ان المطلب الأخير مطلب باهظ وصعب ، وان نقص الشمولية في الفرضيات الأساس تبعد النظريات الكبرى الأربع العامة في الستراتيجية عن الاستجابة وتلبية المتطلبات الضرورية لقبولها كنظريات عامة .

فالنظرية القارية مثلاً ، وبشكلها الصافي الذي عرضه كلاوزفتج قد أوجدت وضمن نمطها الخاص الفرضية التي تقول : أن الجيوش يجب أن تلتقي وان أحدها يجب دحره في معركة ، كما تتضمن النظرية القارية في أساسها على فرضية ضمنية اخرى مفادها أن الحرب البحرية أو المواصلات البحرية أو الحرب الجوية لا يجوز أن تكون عوامل حاكمة الى الحد الذي يفرض أن تكيف احتياجات المعركة البرية وفقاً لها ، هذا وان الصياغة الكلاسيكية ـ للنظرية القارية ـ هي الحروب النابليونية . وكانت تلك

---

(٣) اي مزيج بين ثقافتين او اكثر .

المترجم

٤ ـ يمثل هذا الشعور موقف او وجهة نظر الغرب الذي لا يهتم بتحويل العالم الى مجتمع راسمالي كبير بقدر اهتمامه باخضاع العالم لتحكم الغرب والستراتيجية او الستراتيجية العليا هي اداة تحقيق ذلك .

المترجم

الحملات التي خاضها نابليون هي الحافز والمهندس الذي كان وراء الصياغة البدائية (الأولى) لنظريات كلاوزفتج ولم يسقط نابليون لأن بعض الستراتيجيين من خصومة قد اكتشفوا لعبته فحاربوه بسلاحه وتمكنوا في النهاية من قهره كما يدعي البعض ولكنه خسر الحرب لأن قوة المفهوم البحري أو النظرية البحرية قد أدخلتا حومة الصراع ففقد نابليون من جراء ذلك السيطرة التي كانت له على سير الأحداث ومسار الحرب إذ كان هو وحده المتحكم الأول والأكبر في أوربا[٥] .

وللنظرية البحرية كذلك ومن بين المقومات الأساس لنمطها هناك فرضية مفادها ان المواصلات البحرية عنصر ضروري في التأثير في سير الصراع .

والنظرية الجوية كذلك تحتوي هي الاخرى على فرضية جوهرية وان كانت ضمنية مفادها أن السيطرة على الشعب المعادي يمكن تحقيقها وفرضها فعلاً بايقاع ، أو التهديد بايقاع ، درجةٍ أو نوع من التدمير المادي ، ولا حاجة بنا لأن نكرر أن ذلك التدمير ـ أو التهديد به ـ يمكن أن يتم بالقوة الجوية .

تستند نظرية (ماو) الى فرضية مفادها أن الجماهير الفلاحية موجودة فعلاً وحقيقة قائمة ، وان هذه القوة يمكن استخدامها كقاعدة للثورة . هنالك أيضاً العديد من الفرضيات الأساس الاخرى في جميع تلك النظريات الرئيسة الأربع التي طرحناها للمناقشة ، إلا أننا اكتفينا بما يخدم في ايضاح الصورة التي نريد .

ولا أريد أو أدعي صراحة أو ضمناً بأن أية نظرية عامة تستطيع إلغاء جميع مصادر الاختلافات الفكرية الراهنة ما بين الجندي والطيار والبحار والستراتيجيين المدنيين . ولا ينبغي علينا أن نسعى لذلك بالتأكيد ، بل وعلى العكس من ذلك فان اتساع وكثرة الآراء ووجهات النظر والمعتقدات كلها مقومات مطلوبة من أجل ادامة الحيوية

(٥) يتهم النقاد العسكريون كلاً من نابليون والماريشال روميل بتمسكهما بنمط عملياتي واحد في كل معاركهما مع اختلافات طفيفة هنا وهناك وانتهى كلاهمابالاندحار عندما جابها خصماً ذكياً استطاع ان يكتشف اسس لعبتيهما في العمل ، وقد اوضح الماريشال مونتغمري دوره في قهر رومل صراحة ونرى ان المؤلف قد اصاب في بيان اثر تجاهل نابليون عدم فهمه للحرب البحرية في سقوطه وذلك لعدم استفادته من تجارب الحرب البحرية ، عدا عن انه لم يكن يمتلك ذلك التصور الواضح للقوة البحرية في جزايها رغم انه سبق له خوض بعض المعارك البحرية . وكان ورومل اساتذة في تطبيق النظرية القارية وستظل نجاحاتهما فيها موضوعاً للدراسة والاستلهام ، مع الاقرار بفشل نابليون في تفهم اسس المفهوم والنظرية البحرية .

المترجم

المرنة الضرورية في أي كيان اجتماعي .

ان الصراع بين أنواع العقليات العسكرية تلك سببه اختلاف الاجتهادات وما من شك في أن تلك الاجتهادات والاستنتاجات قامت على أساس متين وأعدت بشكل جيد والتسليم بنظرية عامة قادرة على أن تتوافق مع كل تلك الاجتهادات والأحكام سيضيف قدرا من النظام على الاعتبارات والحلول والآراء المتضاربة ، ومثل هذا النظام الفكري المرتب ليس هو النظام السائد عموماً الآن ، ولكني اعتقد بامكان التقرب منه أكثر وبطريقة أوثق ، والعملية القائمة حالياً هي عملية توفيقية تستند في معظمها الى الاحترام العميق المتبادل بين أصحاب الآراء والأفكار كما تقوم في القسم المتبقي منها على القبول بأدنى قاسم مشترك مقبول عموماً ، إلا أن هذه العملية التوفيقية لم تؤد في بعض الحالات إلّا الى نتائج بالغة الضعف بل وحتى عقيمة ومع ذلك فليس من الصعب تحسينها وتطويرها بدرجة ملحوظة لو أن الستراتيجيين المتناحرين - مدنيين كانوا أم عسكريين - قد وفقوا الى ايجاد أساس منطقي ضمن مجالات عملهم وانجازاتهم التي يسودها ويطبعها التفهم المتبادل والعام وعلى الأخص في التوجه نحو غايات مشتركة أو استخدام مسالك عامة ومشتركة بل وحتى في الانجازات والأعمال الفردية والخصوصية التي يبدو انها مفهومة ومقبولة وموجهة بالتالي نحو نهايات عامة ومشتركة .

ولعل كل ذلك لن يقلل من حدة التزاحم السنوي على تخصيصات الميزانية (العسكرية) بدرجة ملحوظة أو ذات قيمة ، إلّا أنه قد يؤدي الى أن يعاد توزيع التخصيصات المالية في الميزانية بشكل أكثر استقرارا من حالة التسابق التجاري السائدة في معظم الأحوال .

وينبغي ، وما دمنا نتابع الموضوع نفسه ، ملاحظة ان مناقشات الميزانية والتي غالبا ما يشار اليها بـ«تراشق الخدمات المسلحة بالحجارة» هي ليست سيئة أو خاطئة بذاتها أصلاً وكما يفترض غالباً ، بل انها أو يمكن أن تكون اداة بالغة التعقيد والحذاقة لمناقشة استحقاق هذا المفهوم أو ذاك وجدارته وملاءمته عند تطبيقه على هذا الموقف او ذاك وطالما ظل المال مادة محفزة لتحويل فكرة ما الى واقع فستظل مناقشات الميزانية أكثر الوسائل العامة (الشعبية) للوصول الى قرارات وتوصيات مهمة في السياسة العامة .

الفصل السابع

افتراضات أساس لنظرية عامة

تفرض المناقشة التي انتهت لتوها متطلبات محددة في الكونية (الشمولية) والخصوصية والبنائية التي لا بد من مواجهتها في أية نظرية عامة في السوق ، وكي نحافظ على توجه هذه المناقشة نحو مسألة « ستراتيجية ـ الحرب » فلعل من الأفضل ارساء تلك المتطلبات على أسس « ستراتيجية ـ الحرب » ومثل هذا التضييق في المناقشة ليس بالأمر الضروري أو اللازم في مناقشة نظرية بحتة ، إلا أن ما يهمنا هنا ليس النظرية البحتة فقط بل ستراتيجية الحرب ـ أي نظرية عامة في ستراتيجية الحرب . وتلك الأسس بما لها من علاقة بالاعتبارات الفكرية والعملياتية معاً لهذا النوع الخاص من الستراتيجية ، يمكن أن يعبر عنها بصيغة « فرضيات التخطيط الحربي » .

اختيرت صفحة التخطيط للستراتيجية كاداة تفسيرية لهذه الخلفية ، ولهذا الأساس لأن تقييم أية خطة إنما هو في الحقيقة الرابط ما بين الاعتبارات النظرية للحرب وبين ادارة الحرب نفسها ، انها الحالة (الموقف) الذي يجد الستراتيجي نفسه موزعاً فيه ما بين المعسكرين ـ ان جاز لنا قول ذلك ـ الأول هو الجانب النظري أو المفاهيمي للستراتيجية ، والآخر هو الجانب القتالي أو العملي لها ، وخطة الحرب هي حلقة الوصل ما بين النمط الفكري والواقع ، انها اداة ووسيلة الحوار لتحويل فكرة ما الى عمل ، وهي العقل (الفكر) العسكري في العمل . فعملية التخطيط إذن هي المجال أو الوسط الذي يتحتم فيه على الستراتيجي استخدام أنماط التفكير المدروسة والمنتظمة والمنضبطة لمواجهة فحوص الواقع العملي .

وهكذا ولكي نرسي الأسس التي ستقام عليها الخطوط العريضة لنظرية عامة في الحرب ، تبرز لنا أربع فرضيات[1] هي :

١ ـ **الفرضية الأولى** : وهي ان الحرب قد تقع بغض النظر عن أية جهود ومساع قد تبذل لمنع وقوعها ، وفي هذا شيء ولو قليل مما يدعى بالحتمية التاريخية بلا ريب ، إلا اننا لا نضعه بهذه الصورة ، وأكثر من ذلك فهناك ايضاحان تفسيريان لهما ما يبرر

---

(١) ظهرت بعض اقسام هذه المناقشة عن تلك الفرضيات ولو بشكل مختلف في مقالة لي ظهرت في مطبوعات المعهد البحري الامريكي (المجلد ٨٣ ـ العدد ٨ ـ آب ١٩٥٧ ـ ص ٨١١ ـ ٨١٧) .

وضعهما على رأس هذه القائمة وهما :

الأول : أن الفرضية ليست في الحقيقة أكثر من معرفة السبب في وجود القوات المسلحة أيام السلم وليس هناك من حرفة اخرى في العالم غير القوات المسلحة ـ اللهم إلا الخدمات الطبية ـ مما يمكن أن نرحب باختفائها وانتفاء الحاجة إليها نهائياً لبقاء الوجود البشري وديمومته ، وافتراض ان الحرب ستقع لا يعني بأي حال من الأحوال الرغبة في الحرب للحرب نفسها ، إلا أن اضطرار الرجل العسكري لافتراض ان الحرب ستقع أمر يثير غضب المدنيين بشدة لاقتناعهم بأن دراسة الحرب أو التهيؤ لها يعني الايمان بها والدفاع عنها ، مع ان الباحثين في مرض السرطان مثلاً لم يتعرضوا لتهمة الدفاع عنه مطلقاً ، وهناك في الواقع نوع من الهوس الطاغي ـ بأن الحرب وحشية ولا انسانية وقاسية ولا بد أن من يناقش الحرب هو أيضاً كذلك .

ب ـ والايضاح الثاني : هو ان هذه الفرضية في ان الحرب ستقع تحتم على الستراتيجي نفسه ان يتذكرها بشكل دوري للتأكد من تركيزه على واقعية الحرب وحقائقها وعلى انها تختلف كلياً عن تمارين لعبات الحرب أو تحليق الطيارين الهواة والتي تقودنا أحياناً الى أمور بعيدة جداً أيام السلم .

٢ ـ الفرضية الثانية : وهي ان غاية الحرب هي تحقيق درجة من السيطرة على العدو إلّا أن هذا لا يمثل سوى بيان عام أعد بشكل مقصود . ولعل من المناسب اعادة صياغته بوضوح أكثر ، ولكن وكلما أمضى المرء في دراسته اكثر كلما زاد في تحديد هذا الوضوح وتعقيده ، كما ان المتطلبات لنوع هذه السيطرة المطلوبة على العدو ودرجتها وشدتهاوزمانها ونطاقها لا يمكن إقرارها إلا بعد أن يواجه الستراتيجي موقفاً معيناً ، وبعد ان يتطور هذا الموقف الى درجة يصبح معها اتخاذ القرار ممكناً ، ولكن وعلى الرغم من تلك التأكيدات فيما يتعلق بالحاجة الى العمومية فان هدف الحرب ليس من الأمور التي يمكن تجاوزها ببساطة ، عدا عن أن هدف الحرب موضوع يصعب تحديده . فالتاريخ يحدثنا بأن الحروب نشبت لغايات وأهداف لا عد لها ولا حصر ، وفي معظم الأوقات التي تدور فيها المناقشات حول أهداف الحروب ينبري البعض مؤكدا وباصرار

بأن الحرب ليست سوى استمرار للسياسة بوسائل اخرى[٢] ، وتستمر المناقشة بعد ذلك عادة الى تأكيد ان أهداف الحرب هي أساسا الأهداف نفسها لسياسة ما قبل الحرب والفرق ان وسائل متابعة تلك السياسة تغدو بشكل ما أكثر عنفاً ، وهذا أمر وثيق الصلة بالعمل الذي تقوم به في هذا الكتاب طالما انها تضع مسائل الحرب وأهداف الحرب وسياستها في المقدمة مباشرة .

وفكرة « ان الحرب هي استمرار للسياسة » فكرة أساس لقدر كبير من التخطيط المنسق وبالشكل الذي يدفع وزارتي الخارجية والدفاع باشراك العديد من كبار مفكريهما في لقاءات واجتماعات دورية منتظمة ، ولكن هل هي فكرة جيدة حقاً ؟ أي هذه الفكرة الغامضة ، القائلة بأن السياسة ستستمر على ما كانت عليه حتى بعد اندلاع الحرب ؟ وهل ان الحرب في الحقيقة هي استمرار للسياسة ؟ .

وبالنسبة لنا فأنا لا أعتقد ذلك ، إذ أن الحرب تمثل بالنسبة للامة غير المعتدية ، انهيارا كاملا للسياسة فحال اندلاع الحرب تفقد جميع سياسات ما قبل الحرب مشروعيتها ومصداقيتها تماماً لأن الأوضاع والظروف التي وضعت وصممت تلك السياسات للعمل بموجبها لم تعد تتلاءم والحقائق القائمة إذ أننا سننتقل وحال اندلاع الحرب الى عالم جديد مختلف جذريا ، ولو نظرنا الى الحروب السابقة فسنرى ان عالم ما بعد الحرب يختلف تماما عما كان عليه قبلها وليس هناك إلا القليل من الأوضاع التي حافظت على طبيعتها السابقة ، وكلما كانت الحرب أكثر شمولية كلما أصبح هذا التأكيد أكثر صحة . ونستطيع المراهنة بكل ثقة بأن أي طرف في الحرب (حتى روسيا في الحرب العالمية الثانية) لم تكن لديه أية فكرة واضحة قبل اندلاع الحرب عما سيكون

---

(٢) كثيرا ما نعثر على عبارة « ان الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل اخرى » في المحاضرات والمقالات والمناقشات في المعاهد العسكرية ، ولسوء الحظ فقد اقتبست هذه العبارة بشكل غير دقيق ، فما قاله كلاوزفيتج وكما ورد في ص (٥٩٦) طبعة (١٩٤٣) من كتابه «في الحرب» الصادر عن المطبعة الحديثة هو ... « الحرب ليست اي شيء سوى استمرار العمل السياسي بمزيج من وسائل اخرى » وتابع في الصفحات التالية قضية جديدة هي ان العمل العسكري يجب ان يخدم اهدافاً سياسية ، والقليل من الناس قد يختلف حول ذلك ، وانا لا اقصد كلاوزفيتج هنا بل العديد من شراحه ومفسريه (المؤلف) .

ترجمت العبارة آنفة الذكر في الطبعة العربية من كتاب «في الحرب» كما يلي « ليست الحرب سوى استمرار للعلاقات السياسية مع استخدام وسائل جديدة اخرى » الكتاب السابع ـ ص ١١٤ من كتاب «في الحرب» لكلاوزفيتج ترجمة اكرم ديري والهيثم الايوبي (المترجم) .

عليه العالم بعد أن تنتهي تلك الحــرب .

وحتى في « الحروب الصغيرة » كالحــرب الكورية ، مثلا ، فقد كان هناك القليل من « استمرارية السياسة » بكل ما في هذه الكلمة من معنى وينطبق ذلك على الطرفين معاً . فقد كانت تلك الحــرب بالنسبة لنا (أي الغرب) انقلابا مفاجئــا للسياســة بكل تأكيد ، وربما كان ذلك بسبب ادراك فوري وفجائي في أن السياسات السابقة لم تكن إلا نوعا من الفِصام (الشيزوفرينيا) الذي يفتقر عموما الى اتّصال مناسب مع الواقع الذي يحيا فيه ، كما انها ـ أي الحــرب الكورية ـ لم تكن « استمرارا للسياسة » بالنسبة للشيوعيين كذلك ، لأنهم لو كانوا قد سبقوا النظر في ان تلك الحــرب ستكون كما كانت عليه حقاً فلعلهم ما كانوا سيتقدمون نحو كوريا الجنوبية بالمقام الأول .

ولكن وقبل ان أضع نفسي في موقف صعب وعلى نحو قد يبعث على السخرية ينبغي علي التسليم بامكان اعتبار الحــرب استمرارا لنهج أساس في حماية الوجود الوطني (الأمن القومي) بشكل أو آخر وبغض النظر عما تكون عليه السياسات الفرعية لتحقيق السلامة الوطنية وضمانها ، ويصبح لمفهوم الاستمرارية بعض المشروعية وفقا لهـذا المعيار (أي السلامة الوطنية) فقط وفيما عدا هذا المعيار أو في أي مجال آخر أكثر تحديدا وخصوصية من معيار «البقاء الدائم» فــان من الحكمة والحصــافة اخضــاع مفهوم الاستمرارية لفحوصات وتطبيقات أكثر دقة لأن التسليم الأعمى قد يقودنا الى مجازات مظلمة وغريبة ما لم نكن في غاية الحذر والتأني .

وقد لا نجازف عند التعميم بالقول أن الحــرب من وجهة نظر الطرف المعتدي الذي يبـدأ الحــرب لتحقيق هدف معــين ، قد يكــون فيها ـ أي الحــرب ـ قــدر كبـير من الاستمرارية ما بين سياستي ما قبل الحــرب وما بعدها وهذا على سبيل المثال ينطبق وبدقة على الشيوعيين في فيتنام وكوبا ، أما بالنسبــة للطرف الذي يقع عليـه الهجوم (Conservator)[٣] فان الحــرب تمثل وفي معظم الحالات انهيــارا رهيبا وفشــلا كامــلا للســياسة .

ولكنها ما دامت انهيارا فليست في حاجة لأن تكون مفاجئة ، وهذه قضية اخرى

---

(٣) يمكن ترجمة الكلمة اعلاه بالطرف «المحافظ» او «المدافع» ايضاً . (المترجم) .

ومختلفة كليا ، والتفكير والتدبر المسبقين والتخطيط ينبغي أن لا يعوقا أو يشوشا والأمر الذي له علاقة كبرى هنا هو إدراك الواقع المحيط بنا وتفهمه ، ولا ينبغي علينا التوقع ان نستمر طويلا وسط السراب والأوهام في أن سياستنا في عالم ما قبل الحرب ، سيكون لها شبه كبير أو ستواصل استمراريتها مع حقائق الحياة في موقف ما إبان الحرب أو بعدها .

وقبل ان ننتهي من مناقشة التأكيد بأن هدف الحرب هو تحقيق حدٍ أو درجة من السيطرة ، فهناك مسألتان أخريان وثيقتا الصلة بذلك ولابد منْ الاشارة إليهما ، تخص **الأولى** منهما معتقدا تقليديا ، أما **الثانية** فتخص ما يمكن تسميته بـ«هدف الأهداف» .

أما المعتقد التقليدي هذا ، والسائد والمسيطر في جميع المناقشات العقائدية التي نصادفها فهو القول الفصل والحاسم لكلاوزفيتج في ان الهدف ـ وهو يعني ضمنيا هدف الجيش ـ في الحرب هو تدمير جيش العدو . وفي الوقت الذي قد يكون في هذا التحديد الكثير من الحقيقة إلا انه ليس الحقيقة اللازمة أو الحتمية كحقيقة شروق الشمس مثلا ، وقد أدى القبول المطلق به في الغالب الى أن تلعب هذه المقولة أو القول الفصل دورا كبيرا في تحديد وتضييق مجال التبصر والابداع في الفكر العسكري ، ومنع الستراتيجي حتى من مجرد التفكير بامكان وجود مسلك آخر غير الاصطدام المباشر والرهيب بين الجيوش المتخاصمة في الميدان .

لقد استخدم ليدل هارت هذه المقولة أساسا في تطوير نظريته في التقرب غير المباشر ، وكما لاحظنا في السابق فقد يكون من الضروري فعلا بل وحتى لا مفر من تدمير جيش العدو والى آخر جندي ، إلا انه ومن الناحية الأخرى فاننا ان ألزمنا أنفسنا دائما وأبدا بهذا التحديد المفروض ذاتيا ، وهو ان علينا وفي جميع الأحوال وبأية طريقة كانت تدمير جيش العدو نكون عندها قد حرمنا أنفسنا بالمقابل حرية مراعاة الاعتبارات والأعمال الكثيرة والمتعددة والتي يمكن ان تحقق لنا وبسهولة ويسر الدرجة المطلوبة والتي نسعى إليها من السيطرة على العدو .

وما يتبقى مما له علاقة بفرضية «السيطرة» هو مسألة تركيز السيطرة والغاية منها ، وهنا نصل الى المجال الذي يعد من اختصاص «السياسي ـ الفيلسوف» أو

«الفيلسوف ـ السياسي» وهكذا كما أرى أفضل تعريف لرجل الدولة ـ وينبغي هنا ان نتجاهل البحار الى حد ما ولكن بحذر بالغ ، لذا سأقول ان السيطرة التي نسعى لتحقيقها في الحرب يجب أن لا تكون سيطرة مطلقة وقاسية ومتطرفة جدا والى حد الابادة ـ وقد يكون حكمي هنا حكما ثقافيا ـ حضاريا ـ أو انسانيا وقد لا تكون له الأهمية نفسها في عيون من هم أقل وعيا واعتبارا للناحية الانسانية ـ ومن الناحية الاخرى يجب ألا تكون السيطرة التي نسعى إليها ضعيفة وواهنة أو كمجرد عمل أو اجراء تربوي ـ أو زجري ـ لحمل العدو على أن يكون أقل عدوانية ، ولاجباره على التصرف بتهذيب ومعقولية ولمنعه من ازعاج الطرف الآخر المنتصر فقط ولا أكثر من ذلك ، ولو انه وفي أغلب الأحيان ليس هناك من طرف منتصر بكل ما في الكلمة من معنى ، ولنتذكر وعلى سبيل المثال فقط ما حدث في كوريا لايضاح ذلك المعنى . ويعيش معظمنا ـ أعني هنا في الغرب ـ ضمن اخلاقيات الثقافة أو الحضارة الغربية[٤] وآمل أنهم سيتفقون معنا على أن السيطرة التي تنجز كنصر يجب أن تكون كافية وملائمة لضمان أن العدو سيتمكن ـ في عالم ما بعد الحرب ـ من استعادة قدرته على العيش الكريم والنمو والتطور كعضو نافع في المجموعة الدولية ، إلا أنه وكي يحقق ذلك عليه العيش والعمل بشكل مقبول ضمن الأطر التي سيفرضها عالم ما بعد الحرب وأخلاقياته .

٣ ـ **الفرضية الأساس الثالثة** : للتخطيط الحربي هي اننا لا نستطيع التنبؤ بقدر معقول من الدقة بنمط الحرب التي نهيء أنفسنا لها ، فنحن لا نستطيع وبأي قدر من الثقة التوقع مسبقا بزمان الحرب ولا بمكانها ونطاقها وكثافتها ومسارها حتى ولا بالمغزى العام لها . واعتقد انه ما من رجل استطاع ذلك مطلقا ، ولا يمكن كذلك التنبؤ بأية ستراتيجية لحرب شاملة ، ويصح هذا بشكل خاص بالنسبة للموقف في أيامنا هذه إذ قد نجد أنفسنا في مواجهة « عدو محتمل Potential - Enemy » يصعب التحقق من قدراته بدقة ، كما ان نواياه وغاياته هي الاخرى ليس مما يمكن الاحاطة بها على وجه الدقة .

---

(٤) يعبر الكاتب عن وجهة نظر واخلاقيات المجتمع الراسمالي والتي يرى انها قمة حضارية يجب ان تحتذى بل وتفرض على الشعوب ولسنا هنا بصدد مناقشة مقومات الحضارة الغربية وكفينا منها الجانب الفلسفي من العلاقة ما بين الحرب والسياسة والحضارة . (المترجم) .

وإذا تقبلنا هذه المقدمة المنطقية بعجزنا عن التوقع المسبق بنمط وزمان ومكان وطبيعة الحرب سنصل عندها الى استنتاج مفاده ان **الشرط الأساسي الأول في التخطيط الحربي أيام السلم ليس هو التوصل الى / أو اعداد خطة واحدة ثابتة وجامدة للحرب ، بل سيكون من أهم وأول متطلباتنا ما هو أكثر من ذلك ، أي مجموعة أو** «سلسلة» **من مفاهيم خطة ـ الحرب وبأوسع نطاق مفاهيمي ممكن لستراتيجيات الحرب** ، سلسلة قادرة من حيث الزمان والسمات على احتواء أي موقف حربي يمكن توقع حدوثه .

ان المطلوب إذن هو التوصل الى العديد من المفاهيم الستراتيجية التي من شانها أن تؤمن لنا دائما ، أي قبل وخلال الحرب ، ليس فقط ستراتيجية قابلة للتطبيق في موقف معين يفترض حدوثه في المستقبل أو قد ينشأ في أية لحظة ولكن ان يؤمن لنا ـ وهذا أمر بالغ الأهمية ـ معينا من الستراتيجيات الجاهزة للاستخدام وبمجرد حدوث أي تبديل في المواقف أو عند فشل أو تعذر استمرار الحرب وفقاً للخطة التي هي قيد الاستخدام فعلاً .

ينبغي على الستراتيجي إذن التعامل أو تناول مواقف قائمة محددة فقط وبعد تلبية المطلب الحيوي الذي أشرنا إليه آنفاً ـ أي تأمين سلسلة مفاهيم لخطة الحرب ـ وذلك لسبب واحد أو لسببين هما :

أ ـ الأول : لمعرفة أو استنتاج الاحتياجات الادارية والمالية ، وهذه عملية يستند تقدير الموقف فيها على سلسلة من أسوأ المواقف وأقلها مدعاة للرضا والمنتقاة من بين مجموعة كبيرة من الامكانيات المفاهيمية ، والمدعمة بالأحكام المشجعة بخصوص الاحتمالات ، والكلف المالية وبما قد تسببه من ازعاج ومخاطر فيما لو اغفلت ولم يتم التحسب لها في خططنا الادارية وخطط التهيؤ والاستعداد .

ب ـ والسبب الثاني : الذي لأجله ينكب الفكر العسكري فيه على مناقشة مواقف مفترضة بعينها إنما يتمثل في المناسبات والفرص التي قد يتوفر فيها في الواقع مجموعة من الظروف التي يكون الخطر المحتمل أو الكامن فيها كبيرا وبدرجة عالية من الوضوح يؤثر فيها على الخطط المحددة والواقعية التي يمكن استخلاصها اعتمادا على

تلك الفرضيات .

لقد حددت (شحذت) نظريات اللعب الحديثة[٥] (ولعبات الحـرب مثال مناسب لهـا) أحد هـذه الأوجه ، فـاللاعب الذي يخطط وأعـد نفسه لطريقـة واحدة (أي سـتراتيجية واحدة) يخاطر مخاطرةً كبيرة ، والسبب هو وبكل بساطة ان خصمه قد يستطيع اكتشاف مضمون خطته (سـتراتيجيته) المنفردة تلك عاجلاً وبالتالي مواجهتها وإبطال فعاليتها ، فالمطلوب إذن هو اعداد سلسلة (مجموعة) من السـتراتيجيات المرنة غير المحددة أو الجامدة أو الملتزمة بأطر مسبقة ، أي نـظرية يمكن أن تـطبق بقصد وتصميم حتى في المواقف التي لم يسبق النظر في احتمال حدوثها ، والتخطيط للمجهول ولغير المتوقع من الأحداث ليس بالأمر الخطر أو المفروض كما يبدو لأول وهلة فهناك وبعد ـ ورغم ـ كل شيء قدر لا بأس به من الانتظام في الميدان العسـكري كما في مجالات وشؤون الحياة الاخرى ، ومن الناحية الاخرى فان التخطيط بثقة ويقين تامين يعد من أكبر الأخطاء العسـكرية . وكما توضح لنا أحـداث التاريـخ العسـكري نفسـه ذلك بوضوح وقوة ، وسيظل هناك دائماً احتمال الوقوع في شباك وأخطاء عقلية (ماجينو)[٥] سواء أكانت هذه العقلية بحرية أو برية أو محمولة جوا أو من ذوي الكراسي المرفهة في الابراج العاجية .

ولمتابعة موضوع الفرضيات الأساس نجد أمامنا الآن ما يفرض نفسه فرضيةً رابعة في التخطيط السـتراتيجي وهذه الفرضية هي :

٤ ـ **الفرضية الرابعة** : ان صاحب القرار الحاسم والنهائي في الحـرب هو ذلك الرجل الذي يفرض ثقله على ساحة القتال بسلاحه ، فهو الذي يمثل القـوة الأخيرة والفاعلة في الحـرب والمسيطر والمقرر ، وبالتالي فهو نفسه الذي سيقرر في النهاية من سيربح الحـرب ، وهناك من سيعترض على ذلك بحجة انه أمر تجريدي (شيء مطلق) أو مجرد افتراض نظري بلا أساس مادي ، ولكني أعتقد انه إذ تؤثر الوسائل الاخرى

---

(٥) عقلية ماجينو ويرمز بها لكل تفكير عسكري احادي تنقصه المرونة ، كالمتمسكين بالخطوط الدفاعية الحصينة ، او الاعتماد على تحصين السواحل في عصر الحروب الآلية ، اي ترك المسالك والاحتمالات الاخرى ،وقد اثبت التاريخ ان الاعتماد على مسلك واحد بعينه لا يعني سوى الفشل ، وماجينو او خط ماجينو هو مجموعة الدفاعات على الحدود الفرنسية الالمانية في ثلاثينيات هذا القرن . (المترجم) .

وبشكل حاسم على الحرب في أيامنا هذه ، بعد ايقاع أي قدر أو نوع من التدمير والتخريب بالعدو ، فسيظل على الستراتيجي ، إنْ فرض عليه النضال من أجل تحقيق سيطرة دائمة ونهائية - ايجاد أو تهيئة رجل ما ليتولى بنفسه وبالأسلحة التي توضع تحت تصرفه حسم الموقف ، وهذا أمر لا بد منه ودور لا يمكن أن يلعبه في النهاية إلا الجندي .

ومن بين الفرضيات الأربع في أعلاه أرى ان الثلاث الأولى منها حاسمة ، أما من حيث القبول والاعتراف بها فان أربعتهن ضروريات لاستمرار هذه المناقشة ، والفرضية الرابعة التي مفادها - ان الجندي في ساحة القتال هو المقرر النهائي - أصبحت موضوعاً للعديد من الآراء ووجهات النظر المتعارضة كليا . فنظرية دوهيه وبشكلها المثالي المجرد قد استندت مباشرة على الفرضية المعاكسة ، إذ بدون مثل هذا الانكار الضمني لأهمية وجود الجندي - في الساحة - فان نظرية دوهيه ستقترب حقا من الانهيار التام ولا أدعي صراحة بأنه الوجود الفعلي للجندي في الساحة شرط أساس في جميع الأحوال ، ولكن اعتقد بالمقابل حقاً ، بوجوب امكانية وجوده ، وان ينظر الى هذا الوجود بوضوح بوصفه أمراً ممكناً ليكن الحكم النهائي « الذي يقرر ...... » . ومع ان الحرب في المحيط الهادي - الحرب العالمية الثانية - قد تقررت في الحقيقة حتى قبل ان تطأ قدم أي جندي أمريكي للأراضي اليابانية ، إلا انها ومن الناحية الاخرى لم تتقرر نهائيا إلا بعد أن أصبح وصوله أمرا أكيدا ، لا مفر منه ، ما لم تستسلم اليابان قبل ذلك . وهناك مثال آخر لاثبات ذلك ويصح تقديمه هنا على سبيل المقارنة ، وهذا المثال عن جزيرة مالطة التي كانت هي الاخرى مسحوقة وجائعة كما هو حال الأراضي اليابانية ، وفي الحرب العالمية الثانية نفسها كذلك ، إلا ان وصول الألمان أو الايطاليين لم يصبح أمرا حتميا - أي أن وجود الجندي في الساحة لم يصبح حقيقة مؤكدة - لذا لم تقع جزيرة مالطة تحت السيطرة المباشرة لقوات المحور وبالتالي لم تستسلم كما فعلت اليابان .

لذلك فإن الفرضية الرابعة هذه ، أي فرضية الحضور الفعلي أو الممكن للجندي في

الساحة ليصبح الحكم النهائي ، يمكن رفضها واستبعادها كلياً دون الاضرار بشكل حاسم بنظرية عامة في الحـرب ، وإن كنت لا اعتقد الآن ولا أقر كذلك انها يمكن أو يجب أن تستبعد كقضية عملية مهمة ، ويبدو لي انها ضرورية ما لم تتوفر لدينا حجة أكثر احاطة وقوة من مجرد تأكيد بسيط يفيد عكس ذلك .

الفصـل الثـامن

صـياغة وتطـوير نظريـة عامـة

نجد أنفسنا عند هذه المرحلة من المناقشة أمام أربعة افكار حول الحرب وستراتيجيتها وهي :

١ ـ **الفكرة الأولى** : ستكون هناك حروب جديدة .

٢ ـ **الفكرة الثانية** : ان هدف الحرب سيظل هو تحقيق درجة من السيطرة على العدو .

٣ ـ **الفكرة الثالثة** : ان نمط الحرب لا يمكن التنبؤ به عادة مقدماً .

٤ ـ **الفكرة الرابعة والأخيرة** : وهي أن الاداة النهائية للسيطرة في الحرب هي الرجل مع أسلحته في الساحة .

فما هي إذن الأنماط العامة للحرب ؟ وكيف يمكن وصف الحرب بمصطلحات عامة ؟ اعتقد بامكانية الاجابة على ذلك بايجاز وكما يلي :

بقدر تعلق الأمر بالمعتدي (Aggressor) ـ واستخدم هذا الوصف (الكلمة) هنا دون أية مضامين اخلاقية أو عاطفية والتي ترافق عادة ما يوحي بالعدوانية ـ فإن نمط الحرب يشتمل على محاولاته بفرض درجة من السيطرة والمحافظة عليها من ثم ، تفرض السيطرة بالوسائل العسكرية بالدرجة الأولى ، على الطرف الآخر ، المعتدل أو المحافظ (Conservator)[1] وبدرجة تكفي لاجباره على الخضوع بشروط المعتدي أيا كانت هذه الشروط ، وإذا نجح المعتدي بفرض درجة مؤقتة من السيطرة (وهو في الأساس ما كان ليبدأ الحرب مطلقاً لو لم يكن متأكدا من ذلك (بلا ريب) وبعدها فاما سيواصل الضغط حتى النصر النهائي أو أنه سيجبر على التوقف في مرحلة ما من مسار الحرب حيث يفرض عندها نوع من الهدوء أو التوازن غير الحاسم (Equilibrium) يعجز فيه كلا الطرفين من السيطرة على مسار الحرب .

وقبل اكمال صورة هذه الحرب النموذجية ، ينبغي علينا القاء نظرة عليها من وجهة نظر المعتدى عليه (المحافظ أو الراعي) ، والذي يشتمل نمط الحرب بالنسبة إليه

---

(١) نواجه مرة اخرى عدم كفاية الكلمات في مناقشة نظرية في الستراتيجية وقد استخدمت كلمة (Conservator) هنا بمعنى المعتدل او المحافظ وحتى الراعي لاني لم اجد كلمة اخرى مما اعرف لايضاح المعنى الذي اريد ـ (المؤلف) ـ استخدمت هذه الكلمة كنقيض للمعتدي الذي يبدأ الحرب آخذين المعنى من الصراع بين راعي الغنم والذئب . (المترجم)

على مرحلة ابتدائية ـ يجد نفسه فيها مطوقاً بالمشاكل والمعضلات ومنهمكا حتى قمة رأسه لانقاذ أكثر ما يمكن انقاذه من الوقوع تحت سيطرة العدو ، واذا فشل في الحد من السيطرة الأولية للمعتدي على مسار الحـرب أو بتطويقها فسيخسرها كلياً ، أما اذا نجح أولاً في تقليص سيطرة العدو تلك ، ومن ثم شلها وحرمانه من التحكم بمسار الحـرب فستحدث عندها حالة التوازن المتقابل التي أشرنا اليها آنفاً .

ينبغي أن نفهم مقدماً وبوضوح أن مصـطلح الهدوء والتـوازن (Equilibrium) لا يعني حالة توقف جامد أو سكون عن العمل ، ولو انه قد يكون كذلك أحياناً ، إلا أن الأكثر احتمالا أن يكون ذلك نوعاً أو حالة من حالات السيولة (Fluid) بل حتى حالة ناشطة من التردد وعدم الحسم ليس لأي طرف فيها أية فائدة واضحة (أو ما يدعى بجمود الموقف) ، وهي الحالة التي لا يكون فيها للفوائد الصغيرة التي قد يحصل عليها كلا الطرفين أية قيمة في التأثير التراكمي بقدر تعلق الأمر بالسيطرة على مسار الحـرب .

وهنا وعند هذه النقطة بالذات تُتخذ أو تصنع القرارات الحاسمة في الحـرب من قبل كلا الطرفين ، فأما بالنسبة للمعتدي فستكون المسألة هي ما اذا كان عليه مواصلة نمط الحـرب الذي اختطه بنفسه بادىء الأمر أو التحول وفي منتصف الطريق الى نمط جديد ومختلف إن جاز لنا قول ذلك ، كي يبدأ ومن جديد اتجاهاً سـتراتيجياً جديداً ومختلفاً ، إلا أن قرار المعتدي بتغيير نمط الحـرب بعد ان تفرض حالة التوازن ليست من الأمور المعتادة بل والنادرة جداً حتى ليحق لنا القول انها خطوة يعجز الفكر العسـكري عن الاقتناع بها أو حتى تصورها ناهيك عن تنفيذها ، أما اصرار هتلر على الاستمرار في مواجهة معارضيه فتقدم لنا مثلاً عن حالـة نادرة ومتطـرفة جـداً للصـعوبة العميقـة الجـذور هــذه .

أما بالنسبة للطرف الآخر والذي أسميناه المحافظ أو الراعي فان الوصول الى حالة الهدوء والتوازن هي الفرصة المناسبة له لاتخاذ القرارات الحاسمة ، وهي معضلة يمكن بيانها بكل سهولة ، إذ يصبح القرار هو اما الاستمرار على القتال وفقاً للنمط الأول الذي فرضه المعتدي ، اي النمط الذي كان المعتدى هو الأقوى ـ المتفوق ـ فيه ، وإلاّ ما كان اختاره أو واصله أساساً ، أو هل عليه ـ أي المحافظ ـ الاستفادة من الفرصـة

السانحة واستعادة زمام المبادأة ومن ثم السيطرة وبشكل مدروس على نمط الحـرب محولاً مركز ثقل الحـرب[٢] (المركز الســتراتيجي للحرب) الى مكان أو وضع يختاره بنفسه ومن ثم مواصلة الحـرب بالنمط الجديد الذي اختاره أو فرضه ؟

وقبيل الذهاب الى أبعد من ذلك في المناقشة لا بد لنا أن نوضح بأننا قد استخدمنا في هذا الوصف التجريدي للحرب مصطلحي « المعتدي - والمحافظ » للتعبير بطريقـة بسيطة وملائمة عن النمطين المتعارضين بشدة اللذين نصادفهما عموماً ، وهناك طبعاً موقف وسط يمكن لنا صياغته اما بحرب تبدأ بموافقة مشتركة على وقوعها أو بحرب قد تقع بسبب حادث يفاجأ به الطرفان إذ يجدان نفسيهما في حالة اشتباك ، وفي مواقف كهذه وما لم يسارع أحد الطرفين بأخذ زمام المبادأة وفرض السيطرة والتمسك بهـا وبالتالي ربح الحـرب فستنشأ نفس حالة التوازن المـائعة ، وسيـواجه كـلا الطرفين المتخاصمين القرار الحاسم عما اذا كان عليه وكيف سيتولى السيطرة على مسار الحـرب عن طريق معالجة مركز ثقل الحـرب ونقله الى مكان الفعالية وشكلها ونوعها التي تلغي حالة التوازن وتحول ميزان الحـرب لصالحه .

المعضلة الأساسية التي تواجه الســتراتيجي في جميع تلك المـواقف ، وفي أية حرب وفي أي مكان وزمان ، هي : معرفة قرار أين يجب أن يكون مركز ثقل الحـرب ؟ وهل سيكون هذا المركز حيث يريد له العدو أن يكون ووفقاً لمصلحته وغاياته أو حيث يريد له الســتراتيجي أن يكون فعلاً ؟ .

ان القدرة الواعية (سعة الادراك) - أو ربما اللاواعية غالباً - لمعرفة هذا الأمر ومعالجته باعتباره المعضلة المركزية للحرب هي الفرق ما بين رجال كالاسكندر المقدوني أو سيبيون الأفريقي أو الجنرال شيرمان أو ونستون شرشل أو غيرهم من عرفوا كقادة أفذاذ وبين العديد من الرجال الآخرين الأقل شأناً في ميدان الحـرب .

ليس من الضروري هنا التفصيل في الفوائد والمزايا التى لا حصر لها - عسكرياً

---

(٢) ان افضل مثال لهذه الحالة هو نمط الحـرب الذي فرضه سيبيون الافريقي ضد هانيبعل في معركة زاما عام (٢٠٢ ق.م) وكما سرد تفصيله بعد قليل - كتاب الســتراتيجية وتاريخها في العالم - ليدل هارت - ترجمـة الايوبي - الفصل الثالث .

المترجم

وسياسياً أو نفسياً أو اقتصادياً أو غير ذلك مما قد يخطر على البال - والتي سينالها الســتراتيجي وبجدارة ، فيما لو تمكن من تحويل الثقل الحاكم أو المؤثـر للحرب من المكان أو الوضع الذي اختاره العدو الى المسرح الذي اختاره الســتراتيجي (ولا بد لنا من التأكيد هنا على ان استخدام مصطلحات مثل « مركز الثقل Center of Gravity » و « المسرح Scence » والمصطلحات المشابهة الاخرى هـو جزء من معضلة اختيـار الكلمات المناسبة التي أشرنا إليها آنفاً في هذا الكتاب ، وهذه الكلمات ليست محددة بالمضمون الجغرافي فقط بل ان المعنى الذي قصدناه في ايرادها هنا هـو كي تشتمل ضمنياً على نـوعيات وفحـوى وسمات الحـرب بـالاضافـة الى التحديـدات والمواقـع الجغرافية) .

ان السيطرة على مراكز الثقل الســتراتيجية أو على مراكز الجذب في أية حروب ، صغيرة كانت أم كبيرة ، محدودة أم غير محدودة هي مزية لا تقدر بثمن وينبغي بذل أقصى الجهود لتحقيقها من قبل أي ســتراتيجي لأنها المفتاح السحـري والأساس في ادارة الحـرب .

ولغرض ارساء واستثمار السيطرة على نمط الحـرب بمعالجة مركز الثقل فلا بد من توفر ادراك وتفهم كافيين في عقل الســتراتيجي بالاتجاه الذي يسلكه أو يتجه إليه مركز الثقل ذاك ، والتأثير الذي سيكون له عند الوصول الى نهايته ، وبالاضافة الى ذلك فلا بد أن تكون النهاية التي سيتحول إليها مركز الثقل في نقطة يكون العدو فيها أكثر من مفرط (شديد) الحساسية عرضياً ، ومثالياً ينبغي أن تكون في نقطة لها أهمية الوريد الوداجي في منظومة العدو ، أو على أقل تقدير في مركز عصب حساس ومن النوع الذي يتوسع ويتضخم في بنية العدو بما يكفي لاجبار العدو على التكيف للنمط الذي اختاره الســتراتيجي في معالجته للسيطرة[٣] ، وتستطيع القول وبمنتهى البساطة : ان عـلى الســتراتيجي تحريك مراكز ثقل الحـرب نحو تلك النقاط الأكثر حسماً ضمن بنية العدو والأكثر وهناً في الوقت نفسه ولكننا يندر أن نرى - في التطبيق العملي طبعاً - تحقيق هذين المطلبين المثاليين بكامل صورتيهما ، إلا أن سيـطرة الســتراتيجي عـلى الحـرب كلياً

---

(٣) وهذا ما يسميه العسكريون الغربيون باجبار العدو على الرقص على موسيقانا .

المترجم

ستزيد وتقترب من تمامها كل ما ازداد اقترابه من تحقيق هذين المطلبين المثاليين عملياً .

لهذا اقترحنا هنا ، ان نظرية عامة في الستراتيجية ، ينبغي أن تكون تطويرا بشكل ما للمقولة (الفكرة) الأساسية التالية : ان الهدف الابتدائي للستراتيجي في ادارة الحرب هي تحقيق درجة منتخبة من السيطرة على العدو لغاية يتوخاها الستراتيجي نفسه : ويتحقق ذلك بالسيطرة على نمط الحرب ! وتتم هذه السيطرة بمعالجة مركز ثقل الحرب لمصلحة الستراتيجي وضد مصلحة الخصم .

والستراتيجي الناجح هو الذي يسيطر على طبيعة مراكز جاذبية الحرب ووضعها وتوقيتها وثقلها وهو الذي يستثمر السيطرة على نمط الحرب الناجمة عن ذلك كله ويتجه به نحو النهايات التي يختارها .

ليست هذه المناقشة القصيرة معدة للتحليل التاريخي بالاسلوب الكلاسيكي إلا أن بعض الارشادات قد تفيد في اجلاء ما نعنيه بوضوح أكثر ، ونذكر على سبيل المثال القصة الرائعة التي قدمها لنا ليدل هارت في كتابه « أعظم من نابليون » عن سيبيون الأفريقي وعبقريته الستراتيجية الفذة التي استخدمها لتدمير هانيبعل وقرطاجة ، كما عرض لنا ليدل هارت مفهومه في التقرب غير المباشر في مناورات هذين القائدين الكبيرين .

ولاغراض هذه الدراسة سننظر فقط الى المدى الفسيح الذي حدثت فيه وقائع تلك الحرب قبل مئات السنين ! حيث نجد ان هانيبعل قد رسخ أقدامه في ايطاليا متشبثاً بكل قوته للبقاء فيها بعد ان فشل العديد من القادة الرومانيين الذين توالوا على قيادة القوات الرومانية في ابعاده عن ايطاليا ، أو زحزحته عن مواقعه ، كما احتفظ هانيبعل بالسيطرة على نمط تلك الحملات بنجاح حتى تولى سيبيون الأفريقي قيادة القوات الرومانية فقد لجأ أولاً الى نقل مركز الثقل من ايطاليا الى اسبانيا بعد ان أبحر بنفسه الى هناك وفرض سيطرته على مصادر تموين هانيبعل بالرجال والمعدات من قرطاجة ، ثم كانت خطوته الكبرى التالية هي انه نقل مركز الثقل الرئيس للحرب الى السواحل الأفريقية قريباً من قرطاجة نفسها وبهذا فقد «مس» عصباً بالغ الحساسية والأهمية في دولة قرطاجة ، مجبراً هانيبعل بذلك على الخضوع لنمط الحرب الجديد الذي فرضه سيبيون الأفريقي

هذه المرة ، واضطر هانيبعل على سحب قواته من ايطاليا الى قرطاجة للدفـاع عنها ، عندها وللمرة الثالثة حول سيبيون نقطة الضغط المركزية في الصراع بعيداً هذه المرة عن قرطاجة (حيث بدأت قوة خصمه بالتنامي والتجمع بقوة هناك)[٤] ، وكان المكان الذي اختاره سيبيون آنذاك هو الوادي الذي تعتمد عليه قرطاجة في غذائها وتموينها ، واضطر هانيبعل الى الخضوع لحركة خصمه هذه المرة أيضاً ، وتحت الشروط التي وضعها او فرضها سيبيون ، وجرت الملاقاة في الأرض التي اختارها سيبيون وكان النصر الروماني في (زاما) اندحاراً تاماً لقرطاجة (فر بعده هانيبعل من الميدان ودمر الرومانيون قرطاجة وأزالوها من على وجه الأرض) .

تقدم لنا الصورة الكاملة والمجسمة (البانورامية) الشاملة للصراع ما بين هذين القائدين الكبيرين مثالاً كلاسيكياً في معالجة المنتصر لمركز الثقل الستراتيجي للحرب . تتجلى عبقرية سيبيون الأفريقي في اختياره لثلاث نقاط حيوية كان هانيبعل وبلده قرطاجة واهنين في كل منها على التوالي ، أي نقاط الضغط الثلاث التي كانت ستجبر هانيبعل على الخضوع لنمط سيبيون في الحـرب وهي على التوالي : من قاعدة هانيبعل في أسبانيا اولاً الى عاصمته نفسها ثانياً والى مصدر الغلال (الغذاء) الرئيسي لقرطاجة ثالثاً ، ولم يكن أمام هانيبعل أي خيار إلا في خوض الحـرب وفقاً لمشيئة سيبيون (أي الرقص عـلى موسيقى الخصم) وعندما حدث الاصطدام الأخير والحاسم فقد تم وفقاً للنمط الذي اختاره ـ وفرضه ـ سيبيون الأفريقي .

وقبيل اكثر من مائة عام اندلعت حرب اخرى[٥] استمرت ثلاث سنوات وحدثت فيها حالة مماثلة من التوازن النسبي بسبب قدرة الانفصاليين (الولايات الأحدى عشرة

---

(٤) لم يكن هانيبعل سلبياً ولا ستراتيجياً فاشلاً ولكن ما سيدهش مؤيدي النظرية البحرية هو عدم استغلال هانيبعل لقوته البحرية ومهاجمة ايطاليا بحراً بدلاً من سلوك الطريق البري الطويل واجتياز جبال الالب فيما لا زال حتى الآن يعد احدى اشهر المعجزات العسكرية .

المترجم

(٥) الجنرال كرانت (١٨٢٢ ـ ١٨٨٥) قاد احد الجيوش الاتحادية خلال الحـرب الأهلية واصبح الرئيس الأمريكي الثامن عشر ، يعتبر احد اشهر الجنرالات الامريكيين ومن القادة البارزين في تاريخ الحـرب ويدعى بالجزار لما عرف عنه من استهانة ولا مبالاة بحياة الجنود من اجل النصر راجع (Concise Dictionary of Military Biography) وموسوعة التاريخ العسكري العالمي (مرجع سابق) .

الأمريكية الذين عرفوا بـ (Confederacy) ورغم انهم كانوا الجانب الأضعف على فرض النمط الذي اختاروه للحرب ـ أو ولكي نكون أكثر دقة ـ لأن الاتحاديين لم يفعلوا شيئاً يذكر للسيطرة على نمط الحـرب ، وبقي الثقل الرئيسي للحرب في فرجينيا الشمالية بسبب خطأ ـ الاتحاديـين هذا ـ أكثـر من كونـه نتيجـة لتصميم مسبق ، ولم يكن أمـام الانفصاليين أي خيار إلا مواصلة الحـرب هناك بعد فشلهم في نقلها الى الشمال في معركة كيتسبرج : وبدا أن الاتحاديين راغبون هم أنفسهم بالقبول بتلك المنطقة لكونها مركز ثقل ومصالح .

وأخيراً فقد سلط الجنرال (كرانت)[٦] بعض الضغط في الغرب خالقاً بذلك مركز ثقل ثانوي على طول المسيسبي وقد استغل الجنرال شيرمان هذه الفرصة[٧] . وعلى الرغم من استمرار الفعاليات في فرجينيا فقد انتقل مركز الثقل الحقيقي للحرب عبر الجبال مع الجنرال شيرمان الى قلب التحالف الانفصالي وعالج الجنرال شيرمان مركز ثقل الحـرب هذا خلال مسيرته ، وأصبح النمط العام للحرب هو النمط الذي فرضه هو منذ ذلك الحين وحتى النهاية ويعود الفضل في استسلام الانفصاليين في (ابوماتوكس)[٨] الى ما فعله الجنرال شيرمان في الجنوب أكثر مما يعود لعمل الجنرال كرانت في الشمال .

إذن فالجنرال شيرمان هو الذي عالج مركز ثقل الحـرب نحو ، ومن ثم خلال أكثر مناطق الانفصاليين حساسية ووهناً ، ولقد سيطرت تحركاته هذه على مسار الحـرب منذ الوقت الذي بدأ فيه بعبور الجبال وحتى نهاية مسيرته في مفترق الطرق الحيوي .

في هذه اللمحة الشديدة الايجاز لتقديم صورة تاريخية لما حدث خلال الحـرب الأهلية الأمريكية نلاحظ انه لم تجر أية محاولة جادة لربط الستراتيجيات التعاقبية للجيوش البرية مع التأثير (القاضم) للستراتيجية التراكمية خلال الحصار الاتحادي ،

---

(٦) الجنرال شيرمان (١٨٢٠ ـ ١٨٨٥) قاد الجيش الاتحادي الأمريكي خلال الحرب الاهلية وكان ذلك اشهر القادة خلالها ، عمل بتنسيق وثيق مع كرانت ـ راجع المرجعين السابقين ـ .

المترجم

(٧) نعود مرة اخرى الى ليدل هارت فكتابه عن شيرمان هو الفضل بكثير من جميع ما كتب عن شيرمان وعبقريته الستراتيجية .

(٨) مدينة امريكية تقع وسط فرجينيا ، استسلم فيها جيش الانفصاليين بقيادة الجنرال لي للجنرال شيرمان في ٩ نيسان ١٨٦٥ منهياً بذلك الحـرب الاهلية الامريكية .

ذا التأثير الذي تنامى تدريجياً حتى ليصعب تحديد مرحلته بدقة في أي وقت بعينه ، ولكن يمكن القول عموماً ان حملة (شيرمان) لم تكن ممكنة على أية حال قبل سنتين من موعد تنفيذها الحقيقي أي قبل أن يبدأ التأثير التراكمي للحصار البحري فعله ، وبكلمة اخرى ، إن الحـرب في البحر قد بدأت تفرض نفسها بشـدة وقد تجـلى ذلك التأثـير بالتناقص الواضح لمرونة وفاعلية الانفصاليين .

ولو نظرنا الآن الى الصورة الكاملة للحرب العالمية الأولى كمثال ثان فسنلاحظ ظهور نمط مشابه الى حد ما مع اختلاف رئيسي واحد ، فقد فرض الألمان أنفسهم النمط الأول للحرب ، وكان مركز الثقل على خط مباشر تقريباً ما بين المراكز العصبية الجغرافية للخصوم ، وطالما كانت ألمانيا هي الطرف المسيطر قبل حدوث حالة التوازن ، لذا كان مسرح الأحداث بالشكل الذي استقر عليه فعلا أكثر اقتراباً الى المنـاطق الحساسـة للحلفاء منه الى المناطق الألمانية .

ولم يسـع الحلفاء طوال تلك الحـرب ، إلا مـرتين فقـط ، حيث حاولوا فيهمـا السيـطرة على نمـط الحـرب ، كـانت المحـاولة الأولى وهي التي اجهضت في مضيق (الدردنيل) وكان الاخفاق التعبوي الذي حدث هناك من الضخامة بحيث حجب الأهمية السـتراتيجية الكامنة لها لجيل كامل من الزمن .

وفي الحـرب فان عبارة « ربما كان من الممكن » موضوع بالغ التعقيد والدلالة ، إلّا ان المثال الذي بين أيدينا يتميز بالدقة البالغة والقدرة على التوضيح حتى لا ينبـغي لنـا اغفالـه .

فلو أُحسن التخطيط لصولة الانزال في مضيق (الدردنيل) وجرى تنفيـذها ولو بقليل من الكفاية التعبوية المنظمة ضد المقاومة المعـادية التي كـانت هزيلة للغـاية في البداية ، لأمكن لهذه العملية أن تحقق ثلاث نتائج كبيرة هي :

الأولى : كان يمكن تقديم المساعدة الفعالة الى روسيا في واحدة من أحرج مراحل انهيارها الأمر الذي كان سيساعد قوة اخرى غير الشيوعيين من الوصول الى السلطة من خلال الفوضى التي ضربت أطنابها في روسيا آنذاك .

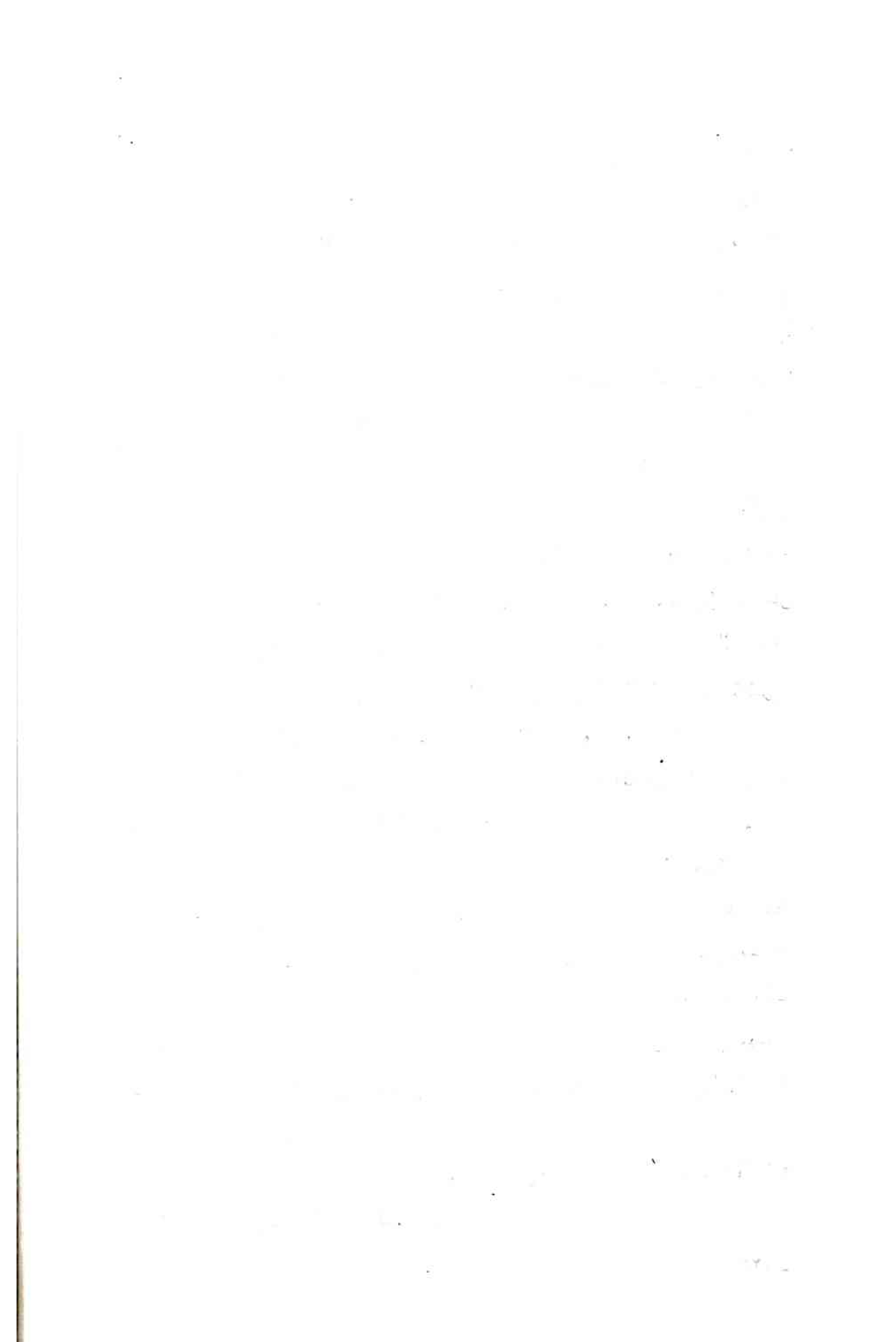
٢ ـ والثانية : هي امكانية انشاء مركز ثقل جديد في المناطق الواهنة في مؤخرة

المانيا واجبارها بالتالي على الخضوع لنمط الحـرب الجديد الذي كان سيفرض يومذاك - أما ماذا كانت ستكون نتيجة كل ذلك ، فليس في مقدور اي كان طبعاً أن يعرف مقدما ما كان يمكن أن تؤول إليه الحال في النهاية ، ويمكن أن نتذكر ان حلفاء المانيا في تلك المناطق كانوا مترددين في الوقوف الى جانبها وكان يمكن بالتالي اجبارها على ان تقاتل في ارض هي ليست في صالحها ، هذا بالاضافة الى ان المانيا كانت آنذاك واهنة اقتصادياً وسياسياً بل وحتى عسكرياً من جهة البلقان وحقول الغلال الزراعية في هنغاريا .

٣ - والنتيجة الثالثة والأخيرة : هي ان نجاحاً مثل هذا في المضائق التركية كان من المحتمل عند حدوثه ان يفتح عيون القوات البحرية الغربية على المقتربات الواسعة عبر بحر البلطيق نحو قلب المانيا ، وعندما نستعيد تذكر ذلك الأمر ، الآن ، نجد صعوبة بالغة في تفسير ما حدث وتقبله وكيف ان تلك الحـرب قد تركت لتستمر كل هذه المدة دون أن يبذل بعضهم ما يكفي من الجهد لقلب نمط الحـرب الذي فرضه الألمان في البداية وقبله الحلفاء الغربيون دونما تبصر طيلة مدة الحـرب مع أنهم كانوا الأقوى دوماً في الجبهة الغربية .

أما المحاولة الثانية الى جانب العملية التي لا طائل وراءها في مضيق الدردنيل ، والتي كان لها أهمية وتأثير في الحـرب وخارج فرنسا نفسها فكانت في فرض الحلفاء سيطرتهم على البحار وبالتالي فرضهم الحصار البحري على ألمانيا ، وكان للسـتراتيجية التراكمية هذه وكما كان لها قبل ستين سنة مضت في الولايات المتحدة ، فضل التأثير والشل النهائي ، إلا أن ما يؤسف له انها لم تتزامن مع السـتراتيجية التراكمية هذه ستراتيجية تعاقبية مقاربة لما فعله الجنرال (شيرمان) ليتم تحقيق الفائدة المرجوة عند تطبيق نوعي السـتراتيجية هذين . ونحن نعرف الآن ان المانيا كانت آنذاك في حـالة اختناق شبه كامل اقتصاديا (وبالتالي سياسيا واجتماعيا) الأمر الذي يشكل بحد ذاته قوة حاسمة وقادرة على تحقيق النصر النهائي على المانيـا عـبر أوحـال وخنـادق الجبهـة الغربية .

أما عند دراسة الحـرب العالميـة الثـانية فيمكن النظر إليهـا ، لاغراض هـذه الدراسة على انها ثلاث حروب منفصلة حدثت في وقت واحد ، وفيما عدا مثالين أو حالتين



الفصل التاسع

ملاحظات على تطبيق النظرية

وهكذا فان كان لهذه المطالبة بنظرية عامة في الستراتيجية شيء من الحقيقة المادية والمشروعية والقدرة العملية التطبيقية فقد يصبح بالامكان عندئذٍ صياغة اطار ومرجع عام وأساسي يمكن الركون إليه من قبل أولئك الأفذاذ ذوي المواهب والقدرات المتميزة من الجنود والبحارة والطيارين والسياسيين والاقتصاديين والفلاسفة في جهودهم العامة نحو غاية مشتركة .

ولو تفحصنا النظريات الرئيسية الأربع المحدودة في الستراتيجية - أي النظريات القارية والبحرية والجوية ونظرية (ماو) - ثم أضفنا إليها نظرية ليدل هارت الأوسع في التقرب غير المباشر لوجدناها جميعاً تنسجم وتتدرج ضمن النظرية العامة التي نهدف إليها والى حد تتوافق فيه فرضيات تلك النظريات المحدودة فيما بينها وتنطبق مع حقائق اي موقف قد يواجهنا .

ولايضاح ذلك نقول ، لو كان هناك مزارعون ريفيون يمكن اقناعهم «بالشيوعية» فان نظرية ماو تسي - تونك في حرب التحرير الشعبية ستندرج عندئذٍ وتنسجم ضمن النظرية العامة ، وكمثال آخر ، فان كان الموقف الحربي من النوع الذي يحقق فيه التدمير (الجوي) الشامل الحد المعياري من السيطرة المطلوبة فان النظرية الجوية - بشكلها السائد الحالي أو بالشكل الجديد الذي يمكن أن تؤول إليه أو ما يدعى بالنظرية «الجوفضائية» (Aerospace) ستنسجم ، هي الاخرى ، ضمن النظرية العامة ويمكن لهذه الأخيرة ان توفر القرينة والبؤرة المركزية التي يمكن ان تندرج النظرية السابقة ضمنها ، وكذلك إذا كانت المواصلات والسيطرة البحريتان عاملين ضمن المعضلة القائمة ، فإلى ذلك الحد تصبح النظرية والقوات البحريتان مناسبتين ويمكن استعمالهما ضمن المفهوم العام وبنفس الدرجة والى الحد الذي تكون فيه الجيوش العصرية الضخمة مناسبة ووثيقة الصلة بالموقف الناشىء فان مفاهيم النظرية القارية (البرية) تكون مشروعة وصالحة للاستخدام في المشروع الاجمالي[1] .

---

(١) الستراتيجية إذن ميدان تتجاوز سعته افق النظريات الأربع ، بل انها قد تضمها جميعاً في آن واحد كالفرقة الموسيقية (الأوركسترا) فيما يدعوه اندريه بوفر بـالستراتيجية الشاملة، حيث يصبح القائد الاعلى (رجل الدولة) لوحده القادر على التعامل مع الوسائل التي تحت تصرفه مجتمعة ، او كلاً على انفراد ووفقا لمقتضى الحال ، والامثلة التاريخية كثيرة فاقامة الامبراطورية البريطانية يؤكد لنا انسجام النظرية البحرية كمفهوم في

تمهد هذه الخلاصة الموجزة والتجريدية للفقرتين السابقتين ، الطريق لثلاث ملاحظات وثيقة الصلة ببناء الستراتيجية أو التخطيط لها :

١ ـ **الملاحظة الأولى** : هي أني قلت : ان توافقت فرضيات نظرية محدودة مع الواقع ، فانها ـ أي النظرية ـ قابلة للتطبيق ، والآن واذا ما نظرنا اى الوجه الآخر للعملة ، إن جاز لنا هذا القول ، فلعلنا نكون قادرين على استبعاد بعض العناصر الأساسية من قوة العدو عن حلبة الصراع بأن نمنع وبشكل مدروس إحدى فرضياته الخاصة من التحول الى حقيقة واقعية .

ولتقديم مثال على ذلك دعونا نلقي نظرة خاصة على ما حدث إبان الحرب الكورية عام ١٩٥٠ فقد امتنع الشيوعيون عن مهاجمة قواعدنا الجوية الخلفية أو العائمة (من على حاملات الطائرات) وأعطونا بذلك ما يعرف « بالملاذ الجوي Air Sanctury » وكان قبولنا لامتناعهم هذا يتضمن نوعاً من المقابلة بالمثل (Quid pro quo) ، لذا امتنعنا بدورنا عن استخدام قاصفاتنا السوقية في العمل واشراكها بشكل فعال في العمليات الحربية ولم نقصف أية أهداف عبر نهر (يالو) ، وقد يكون الأمر على العكس من ذلك تماماً فلعل امتناعنا نحن عن القصف عبر نهر (يالو) هو الذي دفع الشيوعيين الى عدم مهاجمة قواعدنا الجوية ، أو أساطيلنا البحرية ، ومهما كان السبب فقد تصرف الطرفان بادراك ووعي تامين لما فعلاه ، ومهما كانت الأسباب وراء ذلك ، وهذا الامتناع عن استخدام القاصفات السوقية هو الذي أبقى عنصر القصف الجوي السوقي في النظرية الجوية بعيدا عن الموقف الحقيقي القائم فعلا ... أي ان الحرب الكورية كانت « الحرب ـ الخاطئة » التي لم تتلاءم والفرضية التي استند إليها مفهوم القصف السوقي وتنبأ بها ـ الحرب التي أبعدت القيادة الجوية السوقية بكاملها عن الصراع في كوريا ـ أي

النظرية العامة وحملات الفاتحين العظام عبر التاريخ على انسجام النظرية القارية . اما نظرية (ماو) فقد اثبتت انسجامها في بلدان عديدة مثل الجزائر وكوبا وفيتنام وهذا يؤكد ما ذهب إليه المؤلف من قدرة كل منها منفردة او مع غيرها للانسجام ضمن النظرية العامة . ومن يفضل حرية التعامل مع وسائله هذه او في الموازنة فيما بينها يعني اولاً وقبل كل شيء الاندحار والفشل ولعل هانيبعل ونابليون وهتلر من أوضح النماذج للقادة الذين اهملوا التعامل وفق القدرات التي اتيحت لكل منهم ان الاثنين الاولين قد فشلا ايضا بتفهم المفهوم البحري ومعالجته ، ومن هنا يبدو ان فرصاً افضل قد تتاح لمفهوم ليدل هارت في التقرب غير المباشر . ـ المترجم ـ

ان العدو قد نجح باستبعاد (تعطيل) احدى الفرضيات الأساسية للنظرية الجوية عن اثبات قدرتها وصحتها في موقف بعينه .

ولدينا لاثبات ذلك مثال أو ايضاح آخر ، فقد كانت نظرية ماو تسي ـ تونك تعتمد على امتلاك أو فرض السيطرة على مزارعي الريف ، ومن بين ما فعلناه في فيتنام الجنوبية هو محاولة اسقاط هذه الفرضية الأساسية في نظرية ماو ، والبرنامج الذي طبقناه عام ١٩٦٢ والذي عرف بمشروع « القرى الستراتيجية Strategic - Hamlet » قد استهدف على سبيل المثال ، منع السيطرة الشيوعية على الريف ، أي محاولة حرمان السمك (العصابات) من الماء (الجماهير) الضروري كي تسبح فيه ، هذا العمل في احباط السيطرة الشيوعية على الفلاحين كان العمل الوحيد الذي لم يحاول الفرنسيون تنفيذه قبل عشر سنوات من ذلك في فيتنام الشمالية ، إذ ما لم يصبح معظم مزارعي الريف الى جانب أو تحت سيطرة القوى الثورية فلن تنجح حرب التحرير الشعبية في الافلات من الحصار السوقي[٢] .

واستطراداً نقول ان أحداً لم يحاول القيام بعمل مدروس لالغاء مشروعية (صلاحية) الفرضية آنفة الذكر في (لاوس) ، ولعل هذا التفسير ، وهذا النوع من التفكير قد يلقي الضوء على ما واجهناه من صعوبات في ذلك الموقف ، ولعل (لاوس) من بين الأماكن القليلة التي اشتبكنا فيها مع الشيوعيين وعجزنا عن الوصول إليه بحراً إذ ليس هناك من ممر بحري يوصلنا الى لاوس مباشرة لذا حرمنا من استخدام موارد قوتنا البحرية في حل المشكلة (اللاوسية) ، ولحسن الحظ فليس هناك العديد من مثل هذه الأماكن التي نعجز عن استخدام العنصر البحري من قواتنا الوطنية فيها ، ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأن تعذر استخدام العنصر الأساسي في المفهوم البحري بشكل مباشر سيجعل مجابهة ما يعرض لنا من معضلات أمراً بالغ الصعوبة ، وما دام الأمر كذلك فلا بد من تعديل أوضاع الأجزاء الاخرى من قواتنا الوطنية ومواءمتها للتعويض

---

(٢) ما من حاجة بنا الآن للقول ان نهاية الأمريكيين لم تختلف عن نهاية الفرنسيين ولكن هذا لا يعني ان ذلك قد حدث بسبب مشروع القرى الستراتيجية التي لا تشكل في النهاية سوى واحدة من فرضيات النظرية العامة في الصراع .

ـ المترجم ـ

عن هذا النقص الجزئي في القدرات والطاقات التي تمثلها قوتنا البحرية .

ولوضع هذا الأمر في اطار نظري أكثر تحديداً لنفترض تورطنا في صراع ما في افغانستان مثلاً ، ولو حدث هذا فعلاً فعلى مَنْ سيتولى ادارة عمليات النقل والالقاء والاسناد الجويين الا يكتفي بانجاز الواجبات الملقاة على عاتقه ، فقط ، بل وعليه كذلك أن ينفذ وفي الوقت نفسه ما كان يمكن للقوة البحرية أن تقوم به .

ولدينا مثال عملي أكثر واقعية من مجرد هذه الصياغة النظرية لما قد يحدث في افغانستان ، ففي عام ١٩٣٩ عرضت بريطانيا وهي قوة بحرية عظمى آنذاك ضمانتها لحماية واسناد بولندا في مواجهة تهديد المانيا وهي قوة قارية (برية) ولما لم يكن الوصول الى بولندا عن طريق البحر ممكناً في ذلك الموقف ، وبغض النظر عما في الضمانة البريطانية من قيمة معنوية أو سياسية فان واقع الموقف البولندي لم يحتو المقدمة الأساسية التي كانت ستسمح للبحرية البريطانية باداء دورها المرجو أو يتضمنها .

نخرج من هذا كله بالحاجة الى تفحص دقيق ومحكم لأنماط تفكير العدو ، ولفرضياته الأساسية التي استند إليها في خوض الصراع ، وينبغي أن تكون عملية التدقيق هذه من بين أوائل ما نفكر ونهتم به في مرحلة التخطيط ، واذا ما تمكنا وبشكل واع ومدروس من ابطال مفعول نظريته فسنكون قد قطعنا شوطاً بعيداً في ابطال اية فاعلية أو تأثير لأعماله وتحركاته ، ولعل تفحصاً دقيقاً كهذا قد يكشف لنا أو يقدم شيئاً حاسماً يساعدنا في تحقيق ما نهدف إليه من سيطرة .

٢ ـ **الملاحظة الثانية** : تسوقها لنا هذه الكلمة نفسها أي «السيطرة» وهي مسألة تخص التحليل الاحصائي لأدوات الحرب واستخداماتها .

ففي خلال الحرب العالمية الثانية قامت مجموعة من الخبراء والفنيين أطلق عليها اسم « مجموعة بحوث العمليات » وتولت اصدار نشرات كانت ذات فائدة لا حد لها في كيفية استخدام الأسلحة ومنظوماتها وعلى الأخص في حرب مكافحة الغواصات في المحيط الأطلسي ، وبعد الحرب طور هذا المفهوم في استخدام الاحصاء والأساليب الرياضية الاخرى باتساع ليشمل ليس الاستخدام العملياتي فقط بل وكذلك ، تقييم ومقارنة القيمة الأساسية لمختلف أدوات الحرب ، وقد طبقت تلك الأساليب في سنوات

ما بعد الحــربَ وبنجاح كبير ، اولاً في تحليل مـختلف اوجه وجوانب المعضلة الجويـة (مثل ، توقعات الاختراق ، والمقترحات الدفاعية ، والتـدمير المنـاسب ، وما شــابه ذلك) .

ولكونه اسلوبا مفيدا وفعالا فقد وسع الى ابعد من ذلك في سلسلة من التطويرات الادارية للمساعدة في إقرار القيمة النسبية لكل منظومة على انفراد وكذلك لقيمـة اية مجموعة أو مزيج من المجموعات ، فأصبح حساب « تأثير الكلفة Cost Effectiveness » حجر الزاوية في ادارة الدفاع وفي إقرار توصيات وتخصيصات الميزانية .

لقد أثبتت هذه الطريقة فاعليتها الى حد بعيد ، فيما يخص الطائرات والصواريخ وحسابات الدفاع الجوي ، وكذلك في احتساب ما يستخدم من رؤوس حربية مع كل منها ، إلا انها لم تكن ناجعة ولا موفقة على الدوام ، وتعرضت لمعوقات عدة ، كما كانت نتائجها أقل وضوحاً أو تقبلاً بشكل عام عند تطبيق الأساليب الاحصائية تلك على أنواع اخرى من أدوات الحــرب ، فلقد تضايق الجندي مثلاً من محاولة قياس وجدوى « تأثير الكلفة » لفرقة مدرعة ، والبحر هــو الآخر واجـه بعض الصعوبـات في تقبل المعـايير الاحصائية لتحديد قيمة سفينة أو مجموعة سفن لأن تلك الأساليب الاحصائية ما كانت قادرة على التوصل والخروج بأرقام واضحة ونتائج دقيقة كما لو طبقت العملية نفسها على عناصر القصف الجوي والصاروخي .

ورغم التذمر والانزعاج الذي يبديه كل من الجندي والبحار ضد هذا التطوير ، والثورة في العلوم الادارية الجديدة ، لم يكن بوسع أي كان كما يبدو دحض أو مواجهة الاحصائيات .

ولعل الاجابة لا تكمن هنا أيضاً في الاسلوب ولكن في النظـرية نفسها ، إذ تعتمد النظـرية الجوية مثلاً على ايقاع التدمير والذي يمثل هنا ظاهرة نهائية يمكن قياسها مثلما يمكن قياس اطلاق الصواريخ أو إلقاء القنابل ، ومع ذلك فلا يبدو التدمير على درجة من الوضوح ليصبح معها اعتباره هو الآخر حجر الزاوية في المفهـومين القـاري والبحـري للحــرب .

ان غاية الجندي هي ترتيب وترسيخ السيطرة على العدو بالانتصار على جيوشه

وبالتالي تدمير (أو تعطيل) رغبته في مواصلة القتال ، أما غاية البحـار فهي في فرض واستثمار السيطرة على البحر ومن ثم مـد وتوسيـع هذه السيـطرة وبمختلف انواع الضغوط من البحر الى البر ، أي حيث يوجد العدو .

التدمير اذن وكما يبدو لنا في حالتي الجندي والبحار ليس إلا أحد عناصر السيطرة وليس السيطرة كلها ، ويمارس الجندي سيطرته النهائية بحضوره الذي لا يمكن تحديه في ساحة العمل (القتال) . أما مساهمة البحار في السيطرة فتتحقق جزئياً بالتدمير أما القسم الأعظم منها فيتحقق بعناصر اخرى ، بـل وحتى بحضوره الشخصي في بعض الحالات مثلما هو الأمر بالنسبة للجندي ، أو وكما يحدث غالبـاً لا بحضوره ، ولكن بـالمساعـدة على فـرض مختلف أنواع الضغـوط السياسيـة أو الاقتصاديـة لاحكام السيطرة ، فالأسطول الأمريكي السادس مثلاً ، قوة سياسية في البحر الأبيض المتوسط بالدرجة الأولى ، كما أن إبحاره اليومي يقرر استنادا الى عوامـل دبلوماسيـة وبفعل العوامل العسـكرية بنفس الدرجة .

كيف يمكن احتساب « جدوى الكلفة لفوج مشاة في برلين أو لوجود مدمرة بحرية في الخليج العربي ؟ ولعل من الأفضل لنـا أن نصف هذا النـوع البالغ التعقيـد من السيطرة بـ«التأثير» إلا انها تظل رغم كل شيء درجة من السيطرة ، وهي على ما هي عليه هدف شرعي ومفيد في تقدير قيمة أدوات النهج السـتراتيجي تلك .

النقطة التي لا بد من ايرادها هنا ، هي انه وكلما زاد تعقيد المفهوم السـتراتيجي ـ ولا علاقة لذلك بتعقيد التكنولوجيات ذات العلاقة ـ كل ما زاد غموض وعدم ثبات المقاييس الاحصائية للقيمة ، إذ يمكن قياس التدمير رياضياً بل وحتى توقع حجمه ومداه وبشكل مسبق وبدرجة عالية من الدقة ، أما السيطرة فهي مسألة اخرى لأنها تتعلق بحياة الناس ، وعليه فستظل والى وقت طويل آتٍ موضوعاً خاضعاً للحكم الانساني . ومن الصعب جدا ان نضع احتمالية احصائية في جانب وحكماً انسانياً في جانب (كفة) آخر ، ومن ثم المقارنة أو الموازنة فيما بينهما ، عدا عن اننا لا نملك حتى الآن الأساليب والأدوات للقيام بذلك إلا في مجالات أُخر للأحكام البشرية .

انها إذن الطبيعة الخاصة للنظريات السـتراتيجية التي تحـد من القدرة عـلى

تطبيق التحليل الرياضي في ادارة أدوات الحـرب .

٣ ـ **الملاحظة الثالثة** : والتي يمكن استنباطها من العلاقة المتبادلة للنظريات العامة والمحددة ، ترد هنا الآن وهي :

لقد ثبتنا الهدف الســتراتيجي بأنه نوع أو درجة من السيطرة ، كما بينـا ان نظرية عامة في الســتراتيجية « ينبغي أن تكون قادرة على تأمين اطار أساس ومشترك لمرجع أو معين يمكن الركون إليه من قبل أولئك الأفذاذ ذوي المواهب المتميزة من الجنود والبحارة والطيارين والسياسيين والاقتصاديين والفلاسفة في جهودهم العامة نحو غاية مشتركة » .

لقـد تعمدنـا طبعاً اضـافة المهن الثـلاث الأخيـرة (السيـاسي والاقتصـادي والفيلسوف) مع الرجال العسـكريين لأن السيطرة ـ سـواء كانت مبـاشرة أو غـير مباشرة ، حاذقة أو سلبية ، جزئية أو شاملة ـ مطلوبة وتمارس بطرق وأشكال متعددة بالاضافة الى ممارستها عسكريا ، وتمارس دبلوماسيا غالبا بـالوصول الى اتفـاقيات متبادلة ، كما تمارس اقتصاديا غالبـا بتحقيق المصالح الخـاصة والتي هي بـأفضل صيغها مبدئية تتمثل بالرغبة في المحافظة على توفير الاحتياجات ، أما فلسفيا فقد تكون ضغوط وقيود السيطرة هي الأكثر نعومة والأكثر قدرة على الانتشار أحياناً ، والأكثر اقناعاً في الوقت ذاته .

ولنتأمل فقط في مقدار ما فرض من السيطرة عبر القرون العشرين التي مرت من قبل الفلسفة المسيحية ولنتأمل فيما تمارسه الفلسفة الشيوعية وفلسفة الحرية الفردية .

ولعل هذا هو بالضبط ما يبدو اننا قد أغفلناه في سـتـراتيجيتنا التحـريريـة في المجتمعات الريفية في العالم ـ أي في تلك المناطق من العالم حيث ما زالت نظرية (ماو) في حرب التحرير الشعبية تشكل فيها اعظم ما يواجهنا من الأخطار المعادية التي يتوجب علينا مقاومتها .

لقد عرفنا حدسياً بطريقة أو اخرى لب المعضلة كما أن البرنامج الأمـريكي في « القرى الســتراتيجية » في فيتنام الجنوبية الذي أشرنا إليه آنفاً استهدف احباط أو تعقيد المساعي الشيوعية لتوفير «الماء» للعصابات «الأسماك» أو جعل نجاحهم في ذلك من

الأمور الصعبة على الأقل ، ويبدو ان مشروع «فيالق السلام Peace - Corps » قد استهدف نفس الغايات الى حد ما إلا أن أياً منهما لم يتفهم جذور المعضلة والتي كانت الحاجة لاعداد فلسفة بديلة .

ولا أدعو بهذا لأن يتولى أحدهم أو حتى أن يفكر في خلق دين جديد أو صياغة مذهب أو عقيدة سياسية جديدة ، وما أريد قوله فقط هو ان علينا أن نقوم بعملنا بشكل أفضل وأن نسعى لتطبيق ما لدينا الآن (وهو شيء رائع حقاً) في المواقف التي تواجهنا فعلاً .

لقد عرفنا منذ وقت طويل وخبرنا في مجتمعنا الأنكلو ـ أمريكي ، ان النظام الانتخابي ذا الحزبين لتطبيق الديمقراطية هو نظام فعال ومقبول في تخصيص واستخدام وتحويل السلطة والتي تعد جوهر وروح المعضلة السياسية ، وعرفنا أيضاً ان نظامنا الديمقراطي يوفر لنا بيئة صالحة للالتزام بقيمنا الروحية المسيحية السائدة .

بيد اننا جوبهنا بالكثير من المصاعب والعراقيل من أجل تعميم أو فرض المشروعين آنفي الذكر (النظام الديمقراطي والاخلاق المسيحية) ليلائما مجتمعات اخرى ، لأن معتقداتنا (فرضياتنا) الأساسية والضمنية عادة لم تكن لتتوافق في الغالب وبشكل وثيق مع معتقدات المجتمعات الاخرى التي نسعى إليها بل والتي يهمنا ايضا اقناعها بالانضمام الى جانبنا .

أما اذا استطعنا تعديل مسلماتنا لتنسجم مع الواقع العملي فقد نستطيع المضي قدماً وبشكل أسرع .

إلا أن هناك بعض الصعوبة في توضيح ما نعنيه بذلك من هذه المناقشة التجريدية لستراتيجية فلسفية لأن مثل هذه الايضاحات نادرة جداً ـ أو لأني بحارٌ ولست فيلسوفاً ، ومع ذلك فهناك ايضاحان قصيران قد يخدمان غرضنا هذا :

١ ـ **الأول** :الطريقة التي أعاد فيها ماو تسي ـ تونك ترتيب نظريات ماركس لكي تنسجم والواقع الصيني فقد ركز ماركس على عمال المدن الذين قاسوا صعوبات ومآسي الايام الأولى للثورة الصناعية ولعدم وجود مثل هذه الطبقة في الصين أو لأنها على الأقل ليست بالحجم الذي يكفي لتكون عاملاً حاسماً في ثورة فعالة ، لذا عدل ماو تسي ـ تونك

النظرية الماركسية للتركيز على فلاحي الريف ، وكان لهذه النظرية المنقحة تأثير مخيف في المجتمعات الريفية .

٢ ـ **والمثال الثاني** : خيالي إلا أنه ذو علاقة مباشرة بالمعضلة القائمة في يومنا هذا حول ما يجب علينا استخدامه من ستراتيجيات للتأثير على المناطق البكر التي لم تنحز أو تلتزم بعقيدة ما في العالم بعد كي تنحاز إلينا ، ويدور هذا المثال الخيالي حول الأب فينيان في رواية «الأمريكي البشع»[٣] والذي ذهب الى زاوية بعيدة في جنوب شرق آسيا ، وساعد الفلاحين في استنباط قاعدة أو طريقة منطقية ، تتضمن خطة عمل لتحقيق الدمار النهائي لأعدائه .

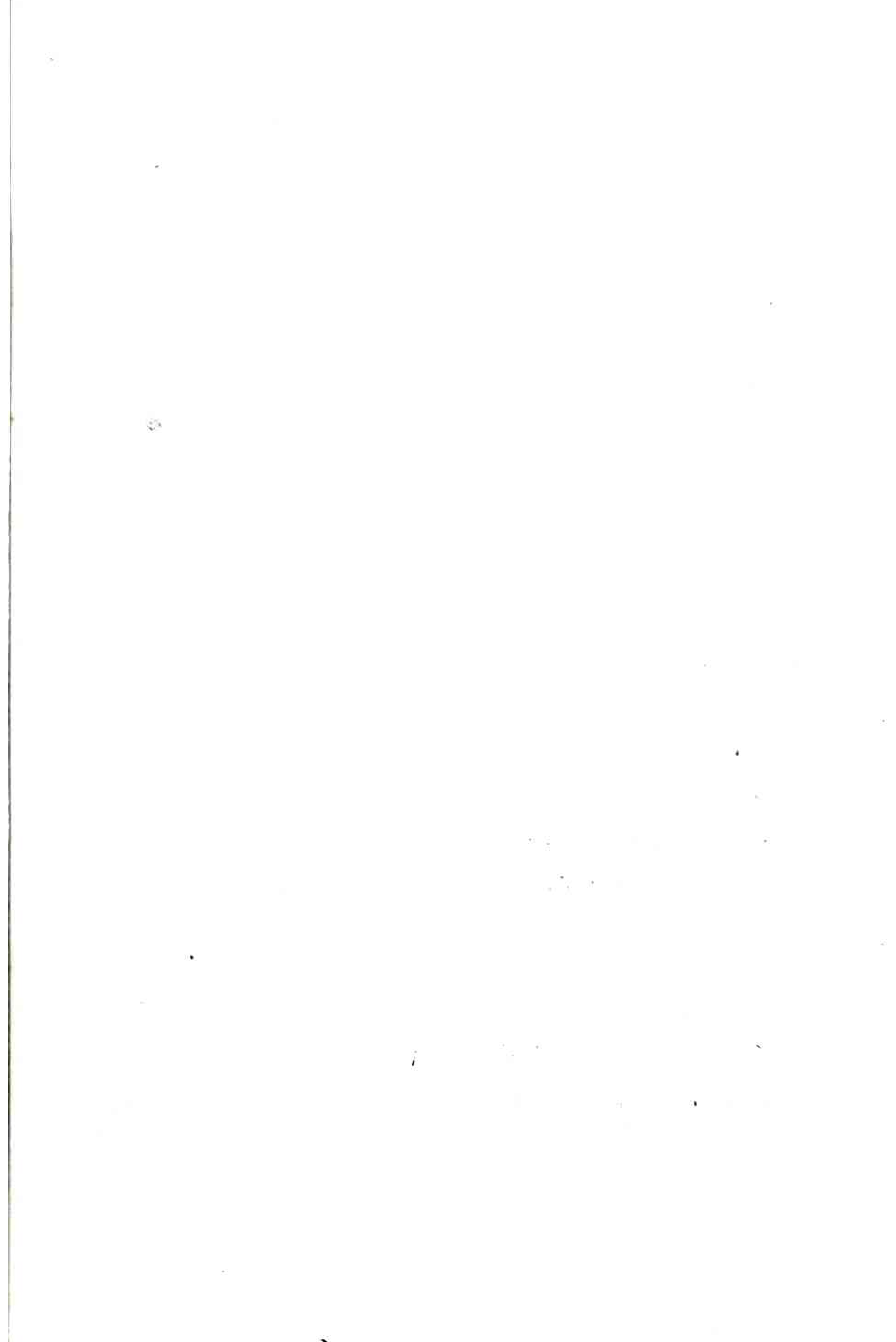
إن هذا القس الكاثوليكي الخيالي[٤] ، وكي نكون أكثر انسجاما مع دوره فهو من مفكري طائفة الجزويت ، وقد استنبط هذا الرجل ستراتيجية تتجذر وبقوة في واقع ومحيط منطقة العمل . لقد وضع في الحقيقة خطة عمل ثم تولى تنفيذها متابعا ذلك حتى النهاية التي أرادها لها .

وما نحتاجه بالضبط هو شيء من هذا القبيل كي نوجد نوعا من الأسس والقواعد التي يمكن بناء ستراتيجية عقلانية كلية منها . وقد لا نوافق جميعنا على ضرورة استنادها على المفهوم الجزويتي الكاثوليكي أو ربما حتى على أي نوع من الفلسفات الدينية ومع ذلك فلا بد أن يكون لها أساس فلسفي معقول وقابلة للتطبيق عملياً كما يجب أن تتلاءم مع الواقع الحقيقي لا ان تفرض قسرا عليه ، فلا بد أن يؤمن المقاتلون بما يقاتلون لأجله كما ان المعتقد الأساسي يجب أن يتطابق مع الواقع .

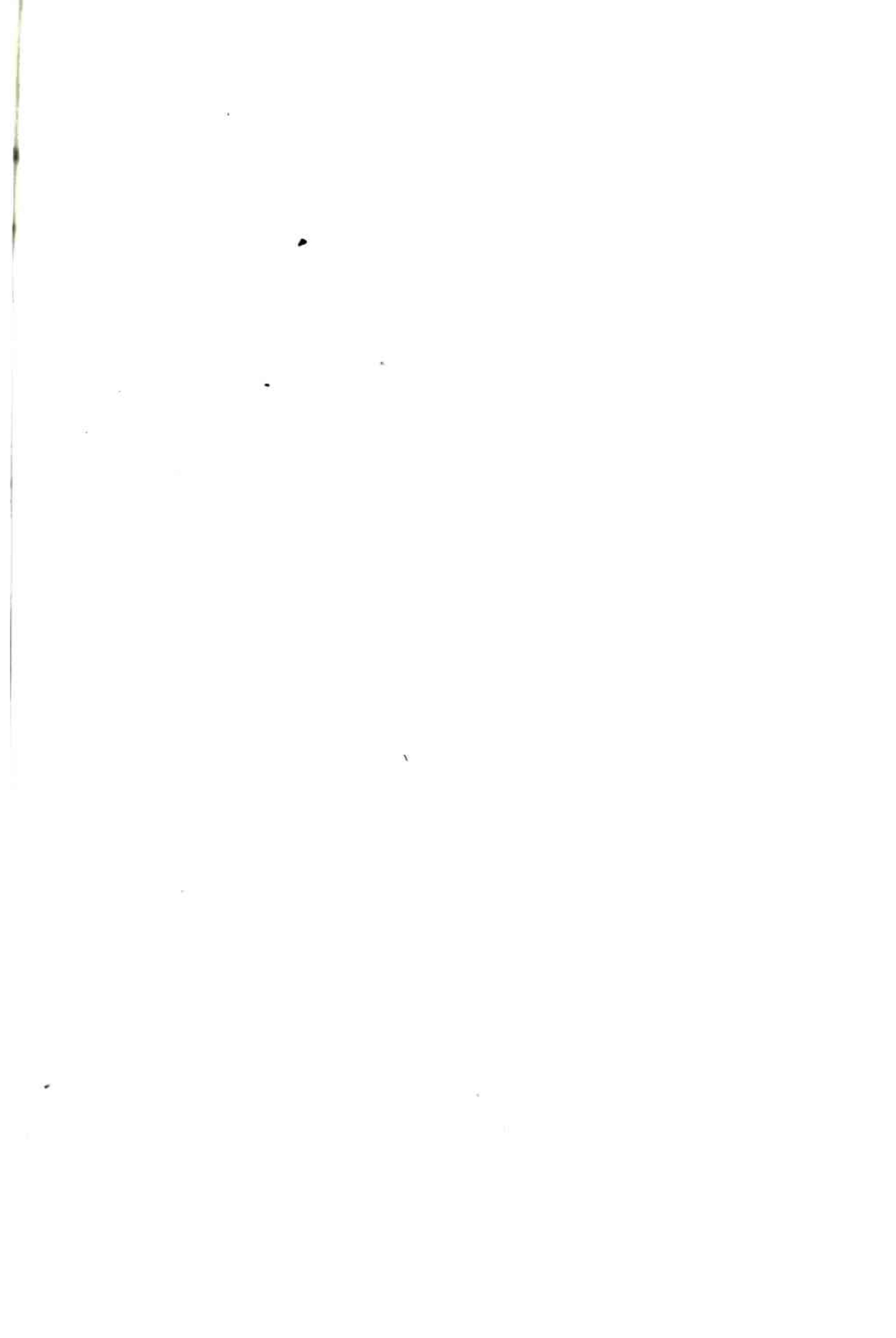
---

(٣) تاليف بوردوك ، و . ليديرر . وليس عليك ان تحب او حتى ان تتفق مع هذا الكتاب المثير للجدل ، فالامر المهم في النهاية هو ان تلك الاحداث التراجيدية في القصة هي تنقيح وتكييف رائع لقاعدة فلسفية على موقف حقيقي .

(٤) هل طور المؤلفان هذه الرواية التي تخيلاها من القصة الحقيقية للاب (هوا Hoa) في اقصى جنوب فيتنام الجنوبية يا ترى ؟ فإن كانا قد فعلا ذلك حقاً فقد كانت صياغتهما لها بالغة الدقة .



خاتمة



ناقشت في الفقرات القليلة الأخيرة ولأول مرة الستراتيجيات غير العسكرية كما وتحدثت عن ستراتيجيات للفلسفة في ـ العمل ، وقد تجاوزت متعمدا ميادين السياسة والاقتصاد حيث اننا أكثر اعتيادا على أنواع متعددة ومختلفة من الصراع ، وقد فعلت ذلك لسببين :

الأول : وهو لتوضيح التأكيد الذي وضعته مقدماً في هذه المناقشة وهو ان الستراتيجية ووفقا للتعريف الذي استخدمناه لها لا تقتصر على موقف حربي أو على التطبيق العسكري ، إذ ينبغي أن تكون النظرية العامة في الستراتيجية قابلة للتطبيق في أي من مواقف الصراع المحتملة .

٢ ـ والثاني : لتوضيح ان المعضلة العسكرية نادرا ما يمكن عزلها عن البيئة الاجتماعية الكلية (المحتوى الاجتماعي الكلي) والتي تؤدي عملها فيها ونيابة عنها .

ومن بين الأمثلة الواضحة على تلك العلاقات المتداخلة في عصرنا هذا هو ما جرى في كوبا وفي فيتنام الجنوبية (قبل توحيدها مع الشمالية) وفي حلف شمال الأطلسي في أوربا وحيث إن تلك المعضلات عسكرية في جزء منها فقط ويجب ان تكون النظريات الستراتيجية لتلك المواقف أو لأية مواقف اخرى قد تنشأ في أيامنا هذه ، قادرة على أن تشمل جميع أوجه وجوانب القوة وليس الجانب العسكري فقط في الوصول الى تحقيق السيطرة المطلوبة .

وللايجاز أقول إنني بدأت من مقدمة منطقية تقول بعدم وجود أساس فكري جيد في التفكير والنقد الستراتيجي لا في الماضي ولا في الوقت الراهن ، آمل أن أكون قد وفقت في ايضاح ان الستراتيجية تستحق أكبر ما يمكن من الاهتمام العام بها وليس من قبل الرسميين ورجال الحكومة فقط بل من قبل الرأي العام ككل وكذلك من قبل الأساتذة والباحثين بشكل خاص وبامكان هؤلاء الباحثين تحويل واستخدام مواهبهم وبراعاتهم بشكل أكثر قوة واصالة وموضوعية نحو معضلات استخدام القوة .

وبعد ذلك ولكي نوضح اين نقف اليوم تعرضنا وبشكل موجز لنظريات القوة العسكرية الموجودة حالياً مع تعليقات وايضاحات حول تحديدات تلك النظريات عند تطبيقها على الحقائق المميزة لأية مواقف معينة ، وعند مناقشة نظريات القوة العسكرية

تلك تقحمت ميدان الفيلسوف السياسي عندما اعتبرت نظرية ماو تسي - تونك نظرية عسكرية ، ولتبرير ذلك أرجو أن يتذكر القارىء ما حدث في فيتنام فقط .

عدت بعد ذلك الى الخلف ، وعزلت على حدة عاملا واحدا يشترك في جميع صراعات السلطة (Power) ، عسكريا كان هذا الصراع أولاً ، وهذا العامل أو القاسم المشترك هو « مفهوم السيطرة » وأعني به شكل السيطرة التي يمارسها كيان اجتماعي ضد كيان آخر وبأية درجة ومدى ونطاق ، وفيما يتعلق بمهنتي فقد تكلمت عن هذا الشكل أو ذاك من أشكال السيطرة العسكرية ، وآمل مخلصاً أن أكون قد أوضحت بشكل واف أن السيطرة العسكرية أو أي من الشؤون العسكرية بمفهومها الواسع هي ليست مما يمكن عزلها والتعامل معها كلاً على انفراد إلا نادراً لتداخلها المحكم مع نسيج القوة الاجتماعية ، لذلك فإن أية نظرية عامة في الستراتيجية لا بد أن تكون ، باعتقادي ، نظرية عامة في السلطة بجميع أشكالها وليس مجرد نظرية في السلطة العسكرية فقط .

ولأجل اعطاء النظرية شكلاً أو اطاراً ما ، فقد أدخلت مفهوم «مركز الثقل» أي النقطة المركزية في استخدام السلطة كفكرة تزودنا بالقوة والتوجه نحو مفهوم السيطرة - أي الهدف مع منظومة الوسائل لتحقيقه . فالسيطرة هي الهدف ومعالجات مركز ثقل الموقف الذي نواجهه هي مجموعة التدابير (الوسائل) لتحقيقه .

وأخيراً وكما قلت في مقدمة كتابي هذا ، فلست أنا الذي يحق له الحكم على ما إذا كانت تأملاتي في نظرية عامة في الستراتيجية ستثبت صحتها وشرعيتها أم لا ، أما اذا قدر لها ان تحث أو تدفع آخرين غيري أما لتهذيب أو لتعديل ما عرضته أو لاقتراح شيء جديد وأفضل مما قدمت حتى وان كان مختلفا عنه ، فسيكون كتابي هذا قد أدى الغاية التي توخيتها منه .

لقد تأخرنا كثيرا في التوصل الى ايجاد طريقة ما ، مناسبة لغرض نظام فكري في الستراتيجية .

ملحوظات الناشر حول المؤلف

بالاضافة الى خدمته لسنوات طويلة في البحرية الامـريكية بمـا في ذلك قيادتـه لمدمرات وسفن هـجومية اخرى وطرادات ثقيلة خلال الحـرب العالميـة الثـانية وبعدها ، فقد عمل الأميرال جي. سي. وايلي في هيئة أركان مركز بحوث البحرية ، ورئيساً لأركان كلية الحـرب البحرية الأمريكية ومعاوناً للقائد العام للقوات البحرية الأمريكية في أوربا ومن ثم كقائد للقاعدة البحرية في «نيوبورت» في جزيرة (رود Rhode) .

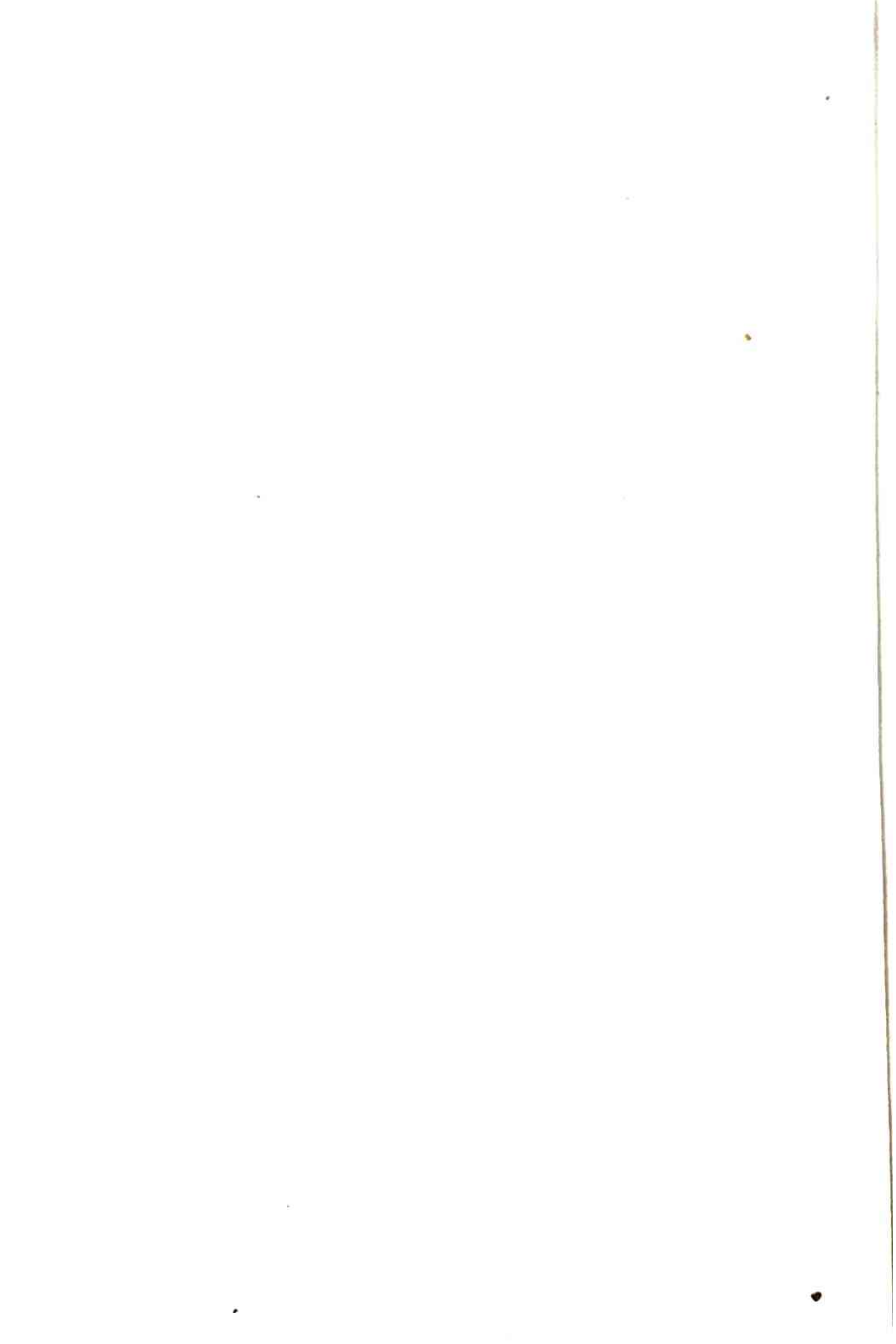
لقد نشر اميرال وايلي الكثير من المقالات في مطبوعات المعهد البحري الأمريكي .

الفهرست



رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٤٥٥ لسنة ١٩٨٧

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة



الستراتيجية العسكرية

هـذا الكتـاب: في « فلسفـة الستـراتيجيـة »، ليس الستراتيجية العسكرية فحسب بل « النظرية العامـة » التي تنطبق على جميع اشكال الصراع باعتبارها نظاماً فكرياً عاماً يتسع لكل مجالات النشاط الانساني.

ان تحليلات الاميرال « وايلي » وآراءه الحيوية تستحق اهتمام العسكريين المحترفين وقادة الحكومات وكبار الصحفيين والمعلقين والاساتذة الاكاديميين، بسبب من عقليته المتحـررة والمتفتحة البعيدة عن المفاهيم التقليدية والتعاليم والطقـوس السائدة.

ان لهذا الكتاب اهمية قاطعة حتى بالنسبة لغير المتخصصين من المعنيين بخير امتهم ومستقبلها.

الغلاف: رياض عبد الكريم

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
بغداد ١٩٨٧

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

السعر: دينار واحد